

أبو الحسن الندوي

إلى الإسلام من جديد

مختار
الاسلامى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله تعالى على خير خلقه محمد وآله وصحبه أجمعين ، أما بعد :

فهذه المحاضرات التي يجهدها القارئ في هذه المجموعة كتبت وألقيت في مناسبات مختلفة ، تختلف في الزمان والمكان ، والعنوان والألوان ، وتجتمع في غاية واحدة وهي : إيقاظ الشعور الديني في المسلمين ، وإعادة الثقة الى نفوسهم بمركزهم ومبدئهم وغايتهم في الحياة ورسالتهم للعالم البشري ، وتهيئة النفوس لحمل هذه الرسالة وتبوء مركز القيادة والامامة للعالم الحائر الشائر ، وتجديف سفينة الحياة الضائعة بين الملاحين ألعابشين والركاب النائمين .

وقد خوطبت في هذه المحاضرات والمقالات الأمة الاسلامية بصفة عامة ، اذ هي الأمة الأخيرة التي أخرجت للناس ، وصاحبة الرسالة الأخيرة التي وجهت الى الناس ، وعنيت بها الأمة العربية بصفة خاصة ، فمن أفقها طلعت شمس الاسلام في العصر الأول وأسفر الصبح الصادق ، وقد أسكنها الله في خير مركز في العالم لتوجيه الدعوة الاسلامية ، وازجاء الرسالة الاسلامية الى الأمم المتحضرة والعالم المتمدن ، وتبوء مكان القيادة العالمية .

ولما كانت هذه المحاضرات كتبت في ظروف مختلفة كنت أشك في وجود وحدة تربط بينها ، لذلك لما اقترح على نشر هذه الرسائل في مجموعة ترددت بعض الزمن في اجابة هذا الطلب ، ونظرت فيها من جديد فاذا بوحدة تجمع بينها وغاية تشترك فيها وهي : الدعوة

الى الاسلام من جديد ، فقبلت هذا الاقتراح وجمعتها في مجموعة
أسميتها ((الى الاسلام من جديد)) وأدعو الله سبحانه وتعالى أن
ينفع بها القراء ، وأن يحرك بها سواكن القلوب ، ويحيى بها موات
النفوس ، انه على كل شيء قدير .

أبو الحسن على الحسنى الندوى
نزيل القاهرة

١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م

* * *

الى ممثلى البلاد الاسلامية

عرجت على المؤتمر الثقافى (١) العام ، الذى قد اشترك فيه ممثلو البلاد وبعثات الأمم ووفود النوادى ، فرايت معرضا للجنسيات والوطنيات والحضارات ، ورأيتكم أيها السادة المسلمون شامة بين الناس ، لا لأنكم تمتازون عن زملائكم فى الشارة واللباس بل لأنكم تمثلون تلك الأمة العظيمة التى كانت ولا تزال شامة بين الأمم .

كان العالم قبل ثلاثة عشر قرنا سائرا سيره الطبيعى لا ينكر من أمره شيء ، فكأنت القرى والمدن عامرة بالسكان ، وكانت العواصم الكبرى زاخرة العمران ، شامخة البنيان ، وكانت الحرف البشرية ووجوه المعاش فى ازدهار وانتشار ، كانت الزراعة وكانت التجارة وكانت الصناعة ، فبينما كانت سكة الفلاح فى شغل ونشاط كانت القوافل التجارية غادية رائحة بين الشرق والغرب ، وكانت الأسواق مشحونة بالمتاجر والبضائع ، وكان الصناعون مكبين على أعمالهم . وكانت الحكومات والامارات والدول غنية بأموالها ورجالها ، لكل وظيفة رجل كفؤ بل رجال أكفاء ، وكان على وجه الأرض كل نوع من البشر ، وكل لون من الحياة ، وكل مظهر من مظاهر المدنية ، لا يرى فى الحياة الانسانية المادية عوز أو فراغ . ولم تكن فى المدينة وظيفة شاغرة يترشح لها مترشح جديد ، وكانت كأس الحياة مترعة لا تطلب المزيد .

(١) المؤتمر الثقافى الآسيوى الذى عقد فى دهلى فى أبريل ١٩٤٧ م ، واشترك فيه ممثلو : مصر ، ولبنان ، وأفغانستان ، وإيران ، وتركيا وأندونيسيا من الاقطار الاسلامية .

في هذه الحال ظهرت أمة في جزيرة العرب ووجد نوع جديد من البشر ، وكأني بالأمم المعاصرة وهى تتسائل : اى داع الى ظهور امة جديدة والأمم على وجه الأرض كثيرة منتشرة ، وما شغل هذه الأمة الحديثة ، وما مهمتها في العالم ؟

وكأني بها تقول : اذا كانت هذه الأمة انما بعثت للزراعة وعمارة الأرض فقد كان في فلاحى الطائف ، وإكارى مدينة يثرب ، وزراع وادى الفرات والنيل وربوع الكنج وجمنا ، غنى عن أمة زراعية جديدة ، فقد أصبحت أراضي هؤلاء الفلاحين وبلادهم جنة تدر لبننا وعسلا ، واذا كان المسلمون انما بعثوا ليشتغلوا بالزراعة فقط ، فلماذا لم يبعثوا في العراق ، وفي مصر ، والهند وهى بلاد مخصصة زراعية ، ولماذا كان مبعثهم في واد غير ذى زرع ؟

واذا كانت هذه الأمة انما بعثت للتجارة ، فقد كان في يهود يثرب وفي أنباط الشام وفي أقباط مصر وتجار السند كفاية ، فقد أحكموا فن التجارة وانتشروا في العالم ، واذا كانوا قد بعثوا ليشتغلوا بالتجارة حقا فلماذا لم يبعثوا على طريق القوافل التجارية ، وبقرب من أسواق التجارة الكبرى ؟

واذا كانت هذه الأمة انما بعثت للصناعة وأعمال اليد ، فقد كان في قيون البلاد المتقدمة ، وأصحاب الصنائع والحرف - وانهم لكثير - غنى وكفاية !

واذا كانت هذه الأمة انما بعثت لتنضم الى الحكومات الرومية والإيرانية ، وتشغل أفرادها وظائف هذه الحكومات ومناصبها ، فقد كان في أهل الشام وفارس غنى وكفاية في الإدارة ، وانهم يزاحمون الأجانب بالمناكب ويدفعونهم بالراح .

واذا كانت هذه الأمة بعثت لعيش هنيئ ، ومطعم شهى ، ومشرب مرىء ، وملبس وضىء ، ومسكن بهى ، لا لشيء آخر وانما

مناها وهمها أن تلقى لبوسا ومطعما ، لم تكن بدعا من الأمم ، وكانت منافسة لنا في ميدان الحياة ، فحق لنا أن نقاتلها ونذودها عن مناهلنا ، وقد ضاقت بنا ، فكيف تسع أمة جديدة ؟

وإذا كانت هذه الأمة إنما تحاول ملكا ، أو تريد أن تؤسس دولة ، فيجب أن تصرح بذلك ، وتتخذ له طريق الملوك والفاتحين ، ولا تتظاهر بالدين .

وان الطريق الى كل ذلك - من زراعة ، وتجارة ، وصناعة ، ووظيفة ، وحياة بذخ وترف ، وملك وشرف - غير الطريق التي سلكتها هذه الأمة الجديدة ، فقد سفهت أحلامنا ، وعابت آلهتنا ، ونعت على عقائدنا وأخلاقنا وأعمالنا ، ودعت الى دين جديد ، وسارت في سبيل ذلك في شوك وقتاد ، وجاهدت في غير جهاد .

لقد كان الطريق الى الرفاهية أو الحكومة مسلوكة معبدة ، قد سلكتها الأمم من قبل ، ومشى عليها الملوك ، وأصحاب الطموح في عصرهم ، فمن حال بينها وبين هذه الطريق ؟ وما الذي عدل بها عن جادة الحياة ، وهي معلومة واضحة ؟!

هذا ما اظنه تناجى به ضمير الانسان العاقل في فجر الاسلام ولا الومه ولا أستغرب هذا السؤال ، فان هذا السؤال طبعى ينبغى أن يهجس في قلب الانسان ، وينطق به اللسان ، عند كل ناشئة فلماذا لا ينشأ هذا السؤال عند ظهور أمة بأسرها ؟

ما هو الجواب ؟ اذا كان الجواب في الاثبات ، وإذا كان مبعث هذه الأمة في الحقيقة بشيء مما ذكرناه ولم تكن لهذه الأمة مهمة جديدة في العالم ورسالة خاصة الى الأمم ، كانت هذه الأمة حقا من فضول الأمم ، ومن المتطفلين على مائدة العالم .

ولكن الله لم يبعثها لهذا أو لذلك ، والأمة والأشخاص لا يبعثون
شيء من هذا ، وإنما هي من طبائع البشر ، لا تحتاج الى نبوة
نبي ، ولا بعثة أمة ، وجهاد طويل وزلزال عالمي لم يسبق في التاريخ
زلزال في المعتقد والأخلاق والميول والنزعات ، وفي نظام الفكر ومنهاج
الحياة .

لقد كان مبعثها لغرض سام جدا ، لمهمة غريبة طال عهد
الإنسانية بها ، وتشاغلّت أمم الأنبياء عنها حتى نسيتهها ، وذلك
ما خاطب به الله سبحانه وتعالى هذه الأمة : « كنتم خير أمة
أخرجت للناس ، تآمرون بالمعروف ، وتنهون عن المنكر ،
وتؤمنون بالله » (١) ! فنبه على أن هذه الأمة ليست نابتة نبتت في
الأرض كأشجار برية أو حشائش شيطانية ، بل انها أمة أخرجت
ولأمر ما أخرجت ! وانها لم تظهر لمصلحتها فحسب كسائر
الأمم ، بل انها أخرجت للناس ، وذلك ما تمتاز به الأمة في
التاريخ ، فما من أمة الا وهى وليد اغراضها ، ورهين بطنها
وشهواتها ، تعيش لاجلها وتموت في سبيلها ، اما الأمة الاسلامية
فهى أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ،
وتؤمن بالله ، وتجاهد في سبيل الله .

ظهرت نواة هذه الأمة في مكة - قلب جزيرة العرب - فقام
العقلاء من قريش - وهم الآخذون بزمام الحياة في البلاد - ونشروا
كنانة فكرهم ، وقاسوا الناشئة الجديدة بمقاييسهم التى
عرفوها والفوها ، ووزنوها في ميزان الإنسانية الذى طالما وزنوا
فيه أصحاب الطموح ، فوجدوهم خفاف الوزن ، طائشى الكفة ،
وذهبوا الى امام الدعوة الاسلامية ، وأول المسلمين في العالم --
صلى الله عليه وسلم - فقال قائلهم :

(١) الآية ١١٠ من سورة آل عمران .

« انك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفحت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها » .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قل يا أبا الوليد أسمع » .

قال : « يا ابن أخى ، أن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا ، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا وإن كنت إنما تريد شرفا ، سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك . وإن كنت إنما تريد ملكا ملكناك علينا (١) » .

سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم كل ذلك فى هدوء وتأن ، ثم رفضه فى غير شك وتأخير ، ولم يكن هذا العرض من قريش على شخص الرسول صلى الله عليه وسلم فحسب ، بل كان على هذه الأمة التى يمثلها ويقودها . ولم يكن رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عرضت قريش ، رفضا عن نفسه الكريمة فقط ، بل كان رفضا عن أمته الى آخر الأبد .

اقتنعت قريش بهذه المحاوراة ، ويئست من مساومة هذه الأمة ، ولم تعد تعرض على رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة وعلى هذه الأمة بواسطة ما عرضته من قبل ، وقطعت منها أملها .

وكان بعد ذلك صراع مستمر ، ونزاع طويل ، ولم يكن نزاعا فى أغراض المادة وشهوات البطن ، والاستئثار بموارد

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

الرزق ، والتغلب على الأسواق ، بل كان نزاعا بين الاسلام والجاهلية بمعنى الكلمتين ، نزاعا بين حياة العبودية والانقياد لله تعالى ورسوله ، وبين الحياة الحرة المطلقة التى لا تعرف قيда او لا تخشى معادا ولا حسابا .

وكان من نتيجة ذلك معركة بدر الحاسمة ، وقد قاد النبى صلى الله عليه وسلم الى ساحة القتال جيشا لا يزيد عدد المقاتلين فيه على ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا ، والجيش المنافس فيه ألف محارب ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يعلم يقينا ان لو وكل المسلمون الى انفسهم وقوتهم المادية ، فالنتيجة معلومة واضحة ، نتيجة كل قليل ضعيف أمام قوى كثير العدد .

فزع الرسول الى الله تعالى فى ائابة نبى ، والحاح عبد ، ودعاء مضطر ، وشفع لهذه العصابة فى كلمات صريحة واضحة ، نيرة خالدة ، هى خير تعريف لهذه الامة ، وبيان لمهمتها وغرضها الذى خلقت له .

لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لو هلكت هذه العصابة ، وكانت فريسة للعدو ، أفقرت المدينة ، وأوحشت أسواقها ، وكسدت التجارة ، وبطلت الزراعة ، أو تعطل شغل من اشغال الحياة ، أو وقفت ادارة الحكومات . لم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا من ذلك ، لأن شيئا منها لم يتوقف على المسلمين ولم يقيم بهم بل كان قبل وجود المسلمين ولا يزال فى غنى عنهم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم ذكر شيئا بعث المسلمون لاجله ، وقام بالمسلمين وحدهم ، فقال : « اللهم ان تهلك هذه العصابة لن تعبد » .

أجاب الله دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقضى بانتصار المسلمين على عدوهم ، وبقائهم ، فكأنما كان بقاء المسلمين مشروطا

بقيام حياة العبودية بهم ، وقيامهم بها ، فلو انقطعت الصلة بينهم وبين العبادة ورواجها وازدهارها في العالم ، انقطعت الصلة بينهم وبين الحياة ولم يبق على الله لهم حق وذمة ، وأصبحوا كسائر الأمم خاضعين لنواميس الحياة وسنن الكون ، بل كانوا أشد جريمة ، وأقل قيمة من الأمم الأخرى ، إذ لم يشترط لبقائها وحياتها مثل ما اشترط لهم ، وكان كما أخبر الله تعالى : **« قل ما يعبؤ بكم ربى لولا دعاؤكم ، فقد كذبتم فسوف يكون لزاما (١) » .**

وقد حافظ المسلمون على هذا الشرط ، وبروا بهذا العهد ، وتذكروا أنهم انما نصروا على عدوهم - وقد كان يأتى عليهم ويستأصلهم في ساحة بدر - وتركوا على ظهر الأرض لأن عبادة الله منوطة بهم على أرض الله .

بهذه الرسالة انبثوا في العالم ، وحملوها الى الملوك والسوقة والأمم ، وفي سبيل ذلك هاجروا واجاهدوا ، ، ولأجل ذلك حاربوا وعاهدوا ، ولم يزالوا يعتقدون أنهم مبعوثون من الله الى الأمم ، وحاملو راية الاسلام في العالم .

أرسل سعد قبل القادسية ربيع بن عامر الى رستم - قائد الجيوش الفارسية وأميرهم - فدخل عليه وقد زينوا مجلسه بالنمارق المذهبة ، والزرابى ، وأظهروا اليواقيت واللالى الثمينة ، والزينة العظيمة ، وعليه تاجه وغير ذلك من الأمتعة الثمينة ، وقد جلس على سرير من ذهب ، ودخل ربيع بثياب صفيقة ، وسيف وترس ، وفرس قصيرة ، ولم يزل راكبها حتى داس بها على طرف البساط ، ثم نزل وربطها ببعض تلك

(١) الآية ٧٧ من سورة الفرقان .

الوسائد ، وأقبل وعليه سلاحه ودرعه ، وببيضته على رأسه ،
فقالوا له :

« ضع سلاحك » فقال : « انى لم آتكم وانما جئتم حين
دعوتهمونى ، فان تركتمونى هكذا ، والا رجعت » ، فقال رستم :
« ائذنوا له » فأقبل يتوكأ على رمحه فوق النمارق ، فخرق
عامتها ، فقالوا له : « ما جاء بكم ؟ » فقال : « الله ابتعثنا لنخرج
من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى
سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام ، فأرسلنا بدينه الى
خلقه لندعوهم ، فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ، ومن أبى
قاتلناه أبدا ، حتى نفى الى موعود الله » قالوا : « وما موعود
الله » ؟ قال : « الجنة لمن مات على قتال من أبى ، والظفر لمن
بقى (١) » .

أباح الله للمسلمين الطيبات ، وفسح لهم فى طرق الكسب
ووجوه المعاش ، ولم يضيق عليهم فى ذلك ، فقال : « قل : من
حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل : هى
للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة » (٢) .

وقال : « فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا
من فضل الله » (٣) .

ولكن الله لم يبعثهم لذلك أمة ، ولم يرضه لهم غاية ومهمة ،
بل خلقهم للسعى للآخرة ، وخلق أسباب الحياة لهم ، « ان الدنيا
خلقت لكم ، وانكم خلقتم للآخرة » وجعل الحياة واسبابها خاضعة

(١) البداية والنهاية لابن كثير .

(٢) الآية ٣٢ من سورة الاعراف .

(٣) الآية ١٠ من سورة الجمعة .

لمهمتهم التي بعثوا لأجلها ، فاذا زاحمتهم في سبيل مهمتهم أو غلبتهم عليها ، رفضوها واذا تلكا المسلمون في ذلك عاتبهم الله عتابا شديدا وقال :

« قل ان كان آباؤكم ، وابناؤكم ، واخوانكم ، وأزواجكم ، وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتريصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » (١)

أراد الانصار رضي الله عنهم أن يتفرغوا لاصلاح أموالهم ، لأيام ، اكتفاء بأنصار الاسلام ، فعاتبهم الله على ذلك وأنزل : « ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » (٢) .

قال سيدنا أبو أيوب الأنصاري رضي الله عنه : « انما نزلت فينا معشر الأنصار ، انا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا في ما بيننا : لو اقبلنا على أموالنا فاصلحنها ، فانزل هذه الآية » (٣) .

ولكن مع الأسف الشديد ، قد تشاغل المسلمون اليوم بالدنيا كالأمم الجاهلية وسعوا وراءها ، وعقدوا حياتهم بها ، فاذا أشرقت على مدنهم وبلادهم من مرقب عال لم تميزوا بينهم وبين افراد أمة جاهلية ، سعى وراء المادة في غير اقتصاد ، واكتساب من غير احتساب ، سهر في غير طاعة ، وعمل في غير نية ، وتجارة في لهو عن ذكر الله ، وحرفة في جهل عن دين الله ، ووظيفة في الاخلاص لغير الله ، وحكومة في مشاققة الله ، شغل في ضلالة ، وقعود في بطالة ، وحية في غفلة وجهالة .

(١) الآية ٢٤ من سورة التوبة .

(٢) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٣) رواه أبو داود في سننه .

هل اذا اطلعتم - يا سادتي - على بلاد اسلامية ، ورأيتم هذه الأمة في غداوتها وروحاتها الى الأسواق والادارات ، ومصالح الحكومة ، عرفتم انها أمة خلقت لشيء آخر ، وبعثت لغرض آخر أسمى من هذه الأغراض التي يسعى لها الكافر والمؤمن .

ان هذا الأسلوب من الحياة لحجة ظاهرة لأهل الجاهلية على المسلمين ، فلو نطقوا لقالوا : « ما ذنبنا ، أيها المسلمون ! اذ عرضنا على نبكم المال ، والسيادة ، والملك ، فأبى ورفض كل ذلك ؟! الا تراكم تسعون اليوم وراء الذي رفضه نبكم بالامس ، كأنما خلقتم لأجله ؟ فأى الفريقين أشد ذنبا ، أمن عرض على محمد صلى الله عليه وسلم المال والسيادة والملك ، تفاديا من الخلاف والنزاع ، فأبى ورفض ، أو من تهافت على ما رفضه سيده تهافت الظمان على الماء ، والفراش على النور ؟.

واذا كنتم اليوم لا يهمكم الا المال ، أو الحياة ، أو الشرف ، أو حكم على قطعة أرض ، فلماذا تظاهرتم بالامس بالدين ، وأقمتم الدنيا وأقعدتموها لأجله ، وكدرتم علينا صفو العيش ، لقد كنتم وكنا في غنى عن هذه الحروب الطاحنة التي أيتمت البنين ، وآيامت النساء ، وأجلت الناس عن الأوطان !.

أعيدوا إلينا اذا تلك الدماء التي أريقتم في ساحة بدر وأحد ، وخيبر وحنين ، واليرموك والقادسية ، وأعيدوا إلينا تلك النفوس التي قتلت باسم الدين ، وأعيدوا إلينا تلك الأيام التي كنا نعيش فيها في وثام وهدوء ، لا نعرف فيها الا الأكل والشرب وقضاء مآرب النفس !

وماذا يكون جوابنا لو تعرض أحد من أخلافهم الأحياء وقال : « ما غناؤكم أيها المسلمون ؟! لقد ساهمتموننا في أسباب الحياة ، وخلقتم لنا فوق ذلك مشكلات كثيرة في الحياة السياسية

والاجتماعية ، ولا تراكم تسدون عوزا ، او تصلحون خلا ، وتلمون
شعنا ، او تقيمون زيفا في الحياة » .

عفوا ايها القراء ، وسماحا ايها الكرام ، فقد طال العتاب ،
وقديما قال الشاعر العربي :

وفي العتاب حياة بين اقوام

من المعلوم ان حياة الامم بالرسالة والدعوة ، وان الامة التي
لا تحمل رسالة ولا تستصحب دعوة ، حياتها مصطنعة غير طبيعية
وانها كورقة انفصلت من شجرتها ، فلا يمكن ان تحيا بسقى
او رى : « فاما الزيد فيذهب جفاء ، واما ما ينفع الناس
فيمكث في الأرض » (١) .

اننا - ايها القراء - امة الحاضر وامة المستقبل ، قد كتب لنا
الخلود والنصر ، لاننا اصحاب دعوة ورسالة نبوية ، وهي الرسالة
الابدية التي قضى الله بخلودها وظهورها ، فليسنا تحت سيطرة
المادة وحكم الزمان ، بشرط ان نقوم بدعوتنا ، ولنستقل برسالتنا
ونعود امة دعوة نبوية كما بدانا ، دعوة في ما بيننا معشر المسلمين
ودعوة في غيرنا من الاجانب في الدين .

لقد تخلفنا عن الامم المعاصرة في العلوم الطبيعية ، والاسباب
الحربية ، وفي الاخذ باسباب الرقى المادى بعدة قرون ، وقد كانت
المسابقة بيننا وبينهم كمسابقة الأرنب والسلحفاة ، الا ان الأرنب
كان ساهرا مع خفته وسرعته ، والسلحفاة نائمة رغم بطئها وثقلها
فلو جاربنا هذه الامم اليوم لاستغرق ذلك قرونا ، ثم كانت المقارنة
بحساب دقيق ، فاذا افاق العدو وسبقنا بشعرة في القوة المادية

(١) الآية ١٧ من سورة الرعد .

والعدد الحربية رجحت كفته ، لأن المادة عمياء وهى من القساوة والحياد التام بمكان لا تفرق فيه بين الحق والمبطل والشريف والوضيع .

ولكن الدعوة والرسالة - وهى الروح التى تقهر المادة وتسخر الأسباب وتستنزل النصر - تأتى بخوارق ومعجزات ، وطالما قهرت القاهر وفتحت الغالب ، وطالما خضعت الحكومات القاهرة ، ودانت الملوك الجبابرة بقوة الدعوة والرسالة للمماليك والصعاليك ، وقد جربت ذلك هذه الأمة مرتين بوضوح فى التاريخ :

مرة : لما خرج العرب من جزيرتهم الى البلاد الرومية والفارسية فى ثياب صفيقة مرقعة ، وفى نعال وضيعة مخصوفة ، يحملون سيوفاً بالية الأجفان ، رثة المحامل ، على خيل قصيرة ، متقطعة الفرز ، وسرعان ما قهرت دعوتهم ورسالتهم وحياتهم الأمم الرومية والفارسية ، التى كانت كدمى كسيت حلالاً فاخرة ، وأعوادا أسندت الى الجدار ، لحرمانها من رسالة ، وقعودها عن دعوة ، وكان الانتصار فى الأخير للرسالة على النظام ، وللروح على المادة ، وللمعنى على الظاهر .

ومرة ثانية : لما قهر التتر - ذلك الجراد المنتشر - العالم الاسلامى من أقصاه الى أقصاه ، وخضدوا شوكة المسلمين ، فلم تقم لهم قائمة ، ولم يقف فى وجههم واقف ، وكاد المسلمون يصبحون أثراً بعد عين ، واستولى اليأس على قلوبهم حتى كان من الأمثال السائرة : « اذا قيل لك ان التتر انهزموا ، فلا تصدق » هنالك فعلت الدعوة الاسلامية فعلها ، ونفذت فيهم . فاذا القاهر يصبح مقهوراً ، واذا الفاتح مفتوح لدين المفتوحين ، واذا التتر يتلفظون بكلمة الاسلام ، ويدينون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، ويصبحون أمة اسلامية .

وان الرسالة الاسلامية لتأتى بالمعجزات اليوم ، وتفهر الأمم
طوعا - لا كرها - بسلطانها الروحي ونفوذها العجيب .

ان آباءكم - ايها السادة المسلمون - قد انتشروا في عواصم
الجاهلية الأولى ، ومراكزها الكبرى ، يقولون : « الله ابتعثنا
لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا
الى سعتها ، ومن جور الاديان الى عدل الاسلام » وخلصوا الأمة
الرومية من عبادة المسيح والصليب والأخبار والرهبان والملوك ،
وخلصوا الأمة الفارسية من عبادة النار وعبودية البيت الكياني ،
والأمة الطورانية من عبادة الذئب الأبيض ، والأمة الهندية من عبادة
البقر ، وأخرجوها الى عبادة الله وحده ، وأخرجوها فعلا من
ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ،
والعالم ينتظر منذ زمان ، رسل المسلمين ينتشرون في عواصم
الجاهلية الثانية ، يهتفون : « الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة
المادة والبطن ، الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس
والأثرة والجشع المادى الى سعة عالم القناعة والايثار والزهد ،
ونعيم الروح وطمأنينة القلب ، ومن جور النظم السياسية
والاجتماعية ، الى عدل الاسلام » .

هذه هي الدعوة التي تهيب بكم يا رجال العالم الاسلامي ،
وهذه الانسانية البائسة تستصرخكم وتستغيثكم على اعدائها .
وليس العالم اليوم باقل ظلما واقل فاقة الى الدعوة الاسلامية
الصحيحة منه بالأمس ، وانه لا يختلف عما كان عليه في القرن
السادس المسيحي ، فهو غنى اليوم في كل ناحية من نواحي الحياة
وفي جميع الحرف والصناعات ، وقد ضاق بالأمم والحكومات ،
وطفح بالاعلام والرايات ، وفاض بالحركات والدعوات ، وضجر
بطفیان الأهواء والنزعات ، وثورة الأغراض والشهوات ، فهو
في ذلك لا يقبل علاوة ، ولا يسمح بزيادة ، فاذا لم يكن المسلمون
الا أمة من الأمم ليست لهم دعوة الى الله ، ولا رسالة للانسانية

المحتضرة ، ولم يكن لهم هم الا أنفسهم وبطونهم ، لم يكن هنالك ما يبرر تاريخهم الماضى الذى افتتح بالدعوة الدينية والجهاد فى سبيلها ، ولا يبرر وجودهم فى هذا العصر ، فانما نصرؤا واستبقؤا بشريطة القيام بالعبادة والدعوة اليها .

والدعوة الى الله هى الناحية الوحيدة التى لا تزال فارغة فى خارطة العالم ، لا تشغلها أمة ولا دعوة ، فاذا عمرها المسلمون احسنوا الى الانسانية والى أنفسهم ، وامسكوا هذا العالم المتمدن الذى قد كاد يهوى فى الهاوية .

معقل الانسانية

كان وجود الأمة الاسلامية في كل ناحية من نواحي العالم رمزاً لحقيقة غير الحقائق المادية واللذات الجسدية ، وكان كل فرد من افراد هذه الأمة يعلن للعالم - وليداً أو ميتاً - أن وراء القوى المادية قوة سماوية ووراء الحياة الفانية حياة خالدة ، فاذا ولد وليد صرخ في أذنه بهذه الحقيقة ، واذا مات فارق الدنيا بهذه الشهادة .

اذا ساد على هذا العالم جمود أشبه بالموت ، وغاص الناس في بحر الحياة الى أذقانهم ، واختفت كل حقيقة وراء الحقائق المادية ، اذا بصوت يدوي « حى على الصلاة ، حى على الفلاح » فينكسر طلسم العالم المادى ، وتتجلى الحقيقة الروحية ، ويجرى الناس وراء هذا الصوت ، وقد تفضوا أيديهم من أشغالهم وخروا أمام ربهم . واذا ضرب الليل رواقه ، ومد النوم أطنابه على هذا العالم الحى الصاخب ، فاذا هو مقبرة واسعة ليس بها داع ولا مجيب ، اذا بمعين الحياة ينصب في وادى الموت ، فينبج الصبح الصادق في الليل الفاسق ، وتتلقى الانسانية الناعسة من مؤذن الفجر درسا في الحياة والنشاط والكدح والكفاح ، والشكر والعبادة . واذا اعتز أحد بقوته وسلطانه ، وزها بكثرة ملئه وأعوانه ، وقال بلسان المقال أو بلسان الحال : « أنا ربكم الأعلى » أو « ما لكم من اله غيرى » قام رجل متواضع على منصة عالية في كل بقعة من بقاع مملكته ، أو نفوذه ، ونادى «الله اكبر الله اكبر» فينادى بحكم الله في مملكته ويرغم آلاف الاله الكاذب في سلطانه .

اذا هاجرت جالية مسلمة من رقعة من رقاع هذه الأرض ، أو أجليت منها ، لم يصب نظام المعيشة بشلل أو خلل ، وظل

الناس يتكسبون ويأكلون كما تأكل الأنعام ، وظلت رحي الحياة تدور دورها الطبيعي ، ولكن روح ذلك المجتمع الانساني تفارق جسده فيصير جثة هامدة لا حياة فيها ولا روح ، كذلك كان في اسبانيا ، وكذلك كان في كل بقعة انسحب منها المسلمون أو أجلاهم عنها أهلها ، وهل اسبانيا الحاضرة الا مدينة بلا روح ، وحياة بلا مبدأ ، وأمة بغير رسالة للعالم !.

ان المؤمن وحده هو صاحب عاطفة في هيكل العقل والمادة الذي لا يعبد فيه الا النفس والبطن ، وهل الحياة الا بالعاطفة؟ وهل الدنيا اذا ماتت العاطفة ، وغلب العقل ، وحكمت المادة ، الا سوق تجارة أو ميدان حرب ؟ فاذا ثار المؤمن للحق كسر طلاسهم العقل ، وفك سلاسل الكون ، وحطم أصنام المادة ، وأملى على العالم ارادة الله ، فاذا هو مطيع خاضع واذا هو متواضع خاشع ، قلب تيار الحياة وغير وجه التاريخ ، وارغم الكون على أن يسير سيرته .

حالت دجلة في سبيل المسلمين دون المدائن ، وكانت السنة كثيرة المدود ، ودجلة تغذف بالزبد ، فجمع سعد الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال : « الا اني قد عزمت على قطع هذا البحر اليهم » فقالوا جميعا : « عزم الله لنا ولك على الرشد ، فافعل » فندب الناس الى العبور ، واذن لهم في الاقتحام ، وقال : « قولوا : نستعين بالله ونتوكل عليه ، حسبنا الله ونعم الوكيل ، والله لينصرن الله وليه ، وندين دينه ، وليهزم من عدوه ، ولا قوة الا بالله العلي العظيم » وتلاحق الناس في دجلة ، وهم يتحدثون كما يتحدثون في البر ، وطبقوا دجلة حتى ما يرى من الشاطئ شيء (١) .

(١) الكامل لابن الأثير (ج ٣ ص ١٩٨) .

نزل طارق بالاندلس ، والبحر وراءه والعدو أمامه والمستقبل رهيب ، والطريق مظلم ، والأرض كفة حابل ، والعدد زهيد والمدد بعيد ، فهزىء بأشباح المادة المخيفة ، وعائد العقل ، وأمر باحراق السفن التي ترجع به الى بلاده (١) ، وعزم على الفتح وأيقن بالنصر ، فهزم العدو ، وملك الجزيرة الخضراء للمسلمين .

أراد عقبة بن نافع أن يتخذ مدينة في افريقية ، يكون بها عسكر المسلمين واهلهم واموالهم ليأمنوا من ثورة تكون من اهل البلاد ، فقصده موضع القيروان ، وكانت وحلة مشتبكة ، بها من أنواع الحيوان من السباع والحيات وغير ذلك ، فدعا الله وكان مستجاب الدعوة ثم نادى : أيتها الحيات والسباع ، انا اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ارحلوا عنا ، فاننا نازلون ، ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه ، فنظر الناس ذلك اليوم الى الدواب تحمل اولادها ، وتنتقل فرآه قبيل كثير من البربر فأسلموا (٢) .

خرج محمد بن القاسم - وهو ابن سبع عشرة سنة - لغزو الهند ، ومعه حفنة من الناس ، والبحار حائلة ، وبلاد العدو واسعة الأطراف وعرة المسالك لم يجربها العرب ، فهزىء بالمعوقين والمرهبين ، وغلب الايمان القوة وغلب الروح المادة ، واذا بالهند - من السند الى الملتان - خاضعة للمسلمين .

ان العالم كله مدينة الأوهام ، والمؤمن وحده هو صاحب يقين لا يزول ، وعقيدة لا تتحول ، وهو في يقينه في عالم الأوهام ، كمصباح الراهب في الغابة المظلمة ، ومنارة النور في بحر الظلمات والجزيرة التي يأوى اليها اليأسون ، والطود الذي لا ترحزه السيول ، ولا تزلزله العواصف وقد يتمسك بيقينه ، ولا يوافقه

(١) نفع الطيب (ج ١ ص ١٣١) .

(٢) الكامل لابن الاثير (ج ٣ ص ٣٣٤) .

على ذلك أحد ، ولا يصدق أحد ، فلا تخور عزيمته ، ولا تلين عريكته ، ولا يرتاب ولا يتلدد ، والناس بين معارض ومنتقد ، ومطيع كاره ، أو مخالف معتزل ، وهو لا يحفل بذلك ، ويمضى كالسيف ، حتى يهزم يقينه ألف جند من الشك ، وينقشع سحاب الأوهام ، ويظهر يقينه مثل فلق الصبح .

استعمل النبي صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد على جيش وأمره بالتوجه الى الشام ، وتوفي النبي صلى الله عليه وسلم ولم يسر الجيش ، وارتدت العرب اما عامة أو خاصة من كل قبيلة ، وظهر النفاق واشرايت يهود والنصرانية ، وبقي المسلمون كالغنم في الليلة المطيرة ، لفقد نبهم وقتلهم وكثرة عدوهم ، فقال الناس لابي بكر : ان هؤلاء - يعنون جيش أسامة - جند المسلمين ، والعرب على ما ترى فقد انتقضت بك ، فلا ينبغي أن تفرق جماعة المسلمين عنك ، فقال أبو بكر : « والذي نفسي بيده ، لو ظننت أن السباع تختطفني ، لانفذت جيش أسامة كما أمر النبي صلى الله عليه وسلم » فخطب الناس وأمرهم بالتجهز للغزو ، وأن يخرج كل من هو من جيش أسامة الى معسكره بالجرف ، فخرجوا كما أمرهم ، وحبس أبو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم ، فصاروا مسالحو قبائلهم وهم قليل ، فلما خرج الجيش الى معسكرهم بالجرف وتكاملوا ، أرسل أسامة عمر بن الخطاب وكان معه في جيشه الى أبي بكر ، يستأذنه أن يرجع بالناس ، وقال : ان معي وجوه الناس وجلدتهم ، ولا آمن على خليفة رسول الله وحرم رسول الله والمسلمين أن يتخطفهم المشركون ، وقال من مع أسامة من الانتصار لعمر بن الخطاب : ان ابا بكر خليفة رسول الله ، الا فامض فأبلغه عنا ، واطلب اليه ان يولى أمرنا أقدم سنا من أسامة ، فخرج عمر بأمر أسامة الى أبي بكر ، فأخبره بما قال أسامة ، فقال : لو خطفتني الكلاب والذئاب لاتفدته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

ولا ارد قضاء قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولو لم يبق في القرى غيرى لأنفذته ، قال عمر : فان الأتصار تطلب رجلا أقدم سنا من أسامة ، فوثب أبو بكر - وكان جالسا - وأخذ بلحية عمر وقال : ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ، استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أعزله ؟!

وسار أسامة ، وأوقع بناس من قبائل قضاة التي ارتدت ، وغنم وعاد ، وكانت غيبته أربعين يوما ، وقيل سبعين ، وكان انفاذ جيش أسامة أعظم الأمور نفعا للمسلمين ، فان العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوه (١) .

ان العالم سوق لا رحمة فيها ولا شفقة ، ولا مسامحة فيها ولا كرم ، والمؤمن وحده هو الذى يؤثر على نفسه ، ولو كان به خصاصة ، ويسامح مدينه وعدوه ، ويتنازل عن ملك واسم وعرض قريب ، طمعا في الأجر ، ومحافظة على الكرم .

تطلب ملك كافر على دولة اسلامية في بلاد مالوه بالهند سنة ثلاث وعشرين وتسعمائة ، وخزج محمود شاه الخلجى صاحب مالود من بلاده هاربا عنه الى كجرات ، فنهض السلطان مظفر الحليم - وكان الخلجى لا يزال على القلعة - وشرع في المحاصرة وجد في أسباب الفتح ، ودخل القلعة عنوة ، ووضع السيف فيهم وكان آخر أمرهم أنهم دخلوا مساكنهم ، وغلقوا الأبواب ، وأشعلوها نارا واحترقوا وأهليهم ، وبلغ عدد القتلى من الكفرة تسعة عشر الفا ، سوى من أغلق بابه واحترق ، وسوى أتباعهم ، فلما وصل السلطان الى دار سلطنة الخلجى التفت اليه ، وهنأه بالفتح ، ودعا بالبركة في ملكه ، وقال له : بسم الله ادخلوها بسلام آمنين ،

(١) الكامل لابن الأثير (ج ٣ ص ١٣٧ - ١٣٨) .

وعطف عنانه خارجا من القلعة الى القباب ، وهيا الخلجى الضيافة
ونزل الى مظفر شاه السلطان وسأله التشرىف بالطلوع ، فأجابه ،
فلما فرغ من الضيافة دخل به فى الأبنية التى هى من آثار أبيه
وجده ، فأعجب بها وترحم عليهم ، ثم جلسا فى جانب منه ،
وشكره الخلجى ، وقال : الحمد لله الذى أرانى بهمتك ما كنت
أتمناه بأعدائى ، ولم يبق لى الآن أرب فى شىء من الدنيا ، والسلطان
أولى بالملك منى ، وما كان له فهو لى ، فأسألك قبول ذلك ،
وللسلطان أن يقيم به من شاء ، فالتفت السلطان اليه ، وقال له :
ان أول خطوة خطوتها الى الجهة كانت لله تعالى ، والثانية
كانت لنصرتك ، وقد نلتها فالحمد لله يبارك لك فيه ، ويعينك عليه ،
وسأله أركان دولته ، ان يستأثر بدولة الخلجى ، فالتفت الى
محمود ، وقال له : احفظ باب القلعة برجال لا يدعون أحدا يدخلها
بعد نزولى ، حتى من ينتسب الى ، وانصرف الى بلاده (١) .

العالم بلاد لا يعيش فيها الا من يحمل فى جنبه قلبا كانما قد
من حجر ، لا يعرف الحنان والرحمة ، ولا يعرف معنى الحب
والإيثار ، والمؤمن وحده هو الذى يحمل فى جنبه قلبا يفيض حنانا
ورحمة للبشر ، ويجمع بين الرحمة والشدة ، والصلابة والرقّة ،
وشكيمة الأسد وحنان الأم ، تخلق بأخلاق الله فجمع بين الرافة
والعزة ، والجمال والجلال ، وتخلق بأخلاق الرسول صلى الله عليه
وسلم فلا يفضب لنفسه ، حتى اذا تعدى الحق لم يقم لغضبه
شىء ، فبينما تراه فى ساحة الجهاد كأنه نار فى حطب ، او منجل
فى حقل ، ليس له عاطفة ولا قلب ، اذا به تراه فى الصلاة تهمل
عيناه ، ويفلى صدره كالرجل ، وتراه يرق للضعيف ، ويحنو
على الأرملة واليتيم ، قد جمع بين حلاوة العسل ومرارة الحنظل ،
الا أن الأولى له سجية وطبيعة ، والثانية له وسيلة وذريعة ،

(١) نزهة الخواطر للعلامة عبد الحى الحسنى ج ٤ .

فهو ينشد بلسان الحال : واني لحلو تعتريني مرادة (١) ، لا يدع
السماحة والكرم حتى مع العدو ، ولا يترك التمسك بالأخلاق
العالية حتى في ساحة القتال .

هذا صلاح الدين الذي سار مثلاً في شدته وجلادته ،
تستغيث به امرأة اختطف ولدها ، فهي تبكي بكاء الثكلى ، فيرق
لها بطل حطين ، ويطوف بها على القبائل والمنازل ، حتى تعرف
ابنها ، وتضمه الى صدرها (٢) ، ويهدي الى قرنه ، وأعدى عدوه
في العالم « رتشارد » الثلج . والفواكه في مرضه (٣) .

الناس من خوف الموت في الموت ، واشد من الموت ، يعدون
هذه الحياة رأس مالهم ومنتهى آمالهم فليس من الغريب أن يود
أحدهم لو يعمر ألف سنة ، حتى اذا جاءه الموت ، خرج من الدنيا
حزيناً متلهفاً على ما يفارقه ، كارهها مستبشعاً لما يستقبله .

أما المؤمن فهو دائم الحنين الى ربه ، شديد الشوق الى
جنته ، لا يبالي أوقع عليه الموت أم على الموت وقع ، يستقبل الموت
باسم الثغر جذل القلب ، فرحاً مستبشراً كأنها هو خارج من
السجن ، أو عائد الى الوطن .

لما طعن جبار بن سلمى عامر بن فهيرة يوم بئر معونة ، فأنفذه ،
قال عامر : « فزت ورب الكعبة » (٤) ولما ضرب ابن ملجم على
ابن أبي طالب ، قال : « فزت ورب الكعبة » (٥) .

(١) شطر بيت لسيدنا حسان بن ثابت .

(٢) ، (٣) الفتح القسى في الفتح القدسي : لعماد الدين الكاتب .

(٤) طبقات ابن سعد .

(٥) كتاب المتفجعين لمحمود بن محمد بن الفضل .

قام أبو عبيدة في الناس في طاعون عمواس ، فقال : أيها الناس ، ان هذا الوجد رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وان أبا عبيدة سأل الله أن يقسم له منه حظه ، فظعن فمات ، واستخلف على الناس معاذ بن جبل ، فقام خطيبا بعده ، فقال : أيها الناس ، ان هذا الوجد رحمة ربكم ، ودعوة نبيكم ، وموت الصالحين قبلكم ، وان معاذ يسأل الله أن يقيم لآل معاذ حظهم ، فظعن ابنه عبد الرحمن فمات ، ثم قام فدعا به لنفسه ، فظعن في راحته ، فلقد كان يقبلها ، ثم يقول ، ما أحب أن لى بما فيك شيئا من الدنيا (١) .

وحضر بلالا الوفاة ، فقالت امرأته : واحزنانه ، فقال : « بل واطرباه ، غدا تلقى الأحبة محمدا وحزبه » (٢) وكذلك روى عن عمار ، أنه كان قال ذلك عند وفاته (٣) .

المؤمن هو الذى يستطيع أن يفضل الفقر على الفنى ، والآخرة على الدنيا ، والنسيئة على النقد الحاضر ، والغيب على الشهود ، والدين على الحياة في كل دور من أدوار التاريخ ، مهما بلغت المادة أوجها .

ليس لقطر من الأقطار أن يمن على الاسلام بأنه فسح له في أرضه ، وانما الفضل والمنة للاسلام على كل قطر ، فقد ألقى عليه درسا في التوحيد الذى لا يشوبه شرك ، وحب الانسانية العامة واحترامها ، ووسع أفق خياله فصار يرى للحياة معنى غير معنى وللانسانية مستوى أرفع من مستواها القديم ، وعالما أفسح من وكره الذى يعيش فيه ، انه وضع عن كل أمة أصرها ، والأغلال

(١) الكامل لابن الأثير (ج ٣ ص ٣١٦) .

(٢) الغزالي في الاحياء عن ابن أبي الدنيا .

(٣) الطبراني .

التي كانت عليها ، وانقذها من العنصرية والجنسية والوطنية ،
وعبادة المال والبيوتات ، والأشجار والأحجار ، والحيوانات
والأنهار ، والأرواح والأجرام السماوية ، ومن الرهينة الفاتكة
بالمدينة ، والعزبة القاطعة للنسل ، وهو الذي طلسم الأوهام التي
مضى عليها قرون ، ودرج عليها أجيال ، أطلق العقل من أساره ،
ورفع الحجر عن العلم ، ونسخ احتكار البيوتات للدين ، ورسم
في الذهن منزلة العمل الفردي ، والسعى الشخصي ، واستقلال كل
إنسان بعمله ومسئوليته ، ومن الذي يستطيع أن ينكر أن الفضل
في تقدم العالم ، وقطع مراحل المدنية والعلم ، إنما يعود إلى
الإسلام . ومن الذي يجهل اليوم أن الفضل في تقدم أوروبا وتخلصها
من رق الأحبار والرهبان ، وسلاسل الكنيسة والحكم المطلق ،
وفي العكوف على العلوم الطبيعية والتجريبية ، والخروج من
الهمجية إلى الحضارة ، إنما يعود إلى الأندلس الإسلامية التي
ظلت قرونا طوالاً مشعل الثقافة ، ومنبع العلم ، ومدرسة الفن
والتهذيب في العصور المظلمة ! إن كلمات العدل والمساواة ،
والإنسانية منتشرة ذائعة اليوم في كل ناحية من نواحي الهند ،
وبارزة على كل صفحة من صفحات أدبائها وكتابها ، وخفيفة على
لسان كل خطيب ومتكلم ، ومن ذا يكابر في أن الإسلام هو الذي
عرف هذه الكلمات إلى أهل هذه البلاد ، وسعى في رواجها وذيوعها
في بلاد لم تكن تعرف هذه الكلمات ومعانيها .

إن المسلمين ليسوا نسلا أو شعبا فحسب ، وليس الإسلام
عادات وتقاليد وتراثا يتوارثه ولد عن أبيه ، أنه دعوة ورسالة
وحياة وعقيدة ، تقتضي بالطبع ، أن يكون نظر المسلم أوسع
من الماديات المحسوسات ، ومن عالم النفوس والبطون ، ووطنه
أوسع من المنطقة الصغيرة التي ولد فيها ، وأن يكون قلبه عامرا
بحب كل إنسان كائنا من كان ، وأن لا تكون الأوطان والأنساب
عائقا ، في سبيل حبه وعطفه ، وأن لا يكون سعيه منحصر في

نطاق الحياة الضيق ، ويلزم لكل من يدين بهذا الدين ان يحمل
للشريعة رسالة للروح والقلب ، والعاطفة والسياسة والاجتماع ،
ويملك قوة اخلاقية تراقبها في النور والظلام ، والوحدة والاجتماع
والعجز والمقدرة ، عنده اساس متين من العلم ، وبيئات ومحكمات
في المدنية ، وحياة نبي كان ولا يزال المثل الكامل للبشرية في مختلف
ظروفه واحواله ، ومختلف عصوره واجياله ، وكل عصر وقطر ،
ومفزع الانسانية في كل ساعة عصبية ، وكلما حلت بها أزمة عجزت
عن حلها العقول البشرية ، والنظم الاجتماعية والسياسية .

اذا حجب الليل النهار ، وهجمت جنود الهوى من كل جانب ،
وهزمت الفضيلة والأخلاق ، واذا اصبح الانسان ينحر اخاه لأجل
فلس أو لأجل قرص ، واذا أصبحت الشعوب الكبيرة تزدرد
الشعوب الصغيرة في سبيل الجشع أو الخيلاء ، واذا صار وثن
المال يعبد على قارعة الطريق ، واذا ضحى بالوف من الناس على
انصاب الجنسية والوطنية ، واذا حال الانسان بين الانسان ورزقه
اذا التهب نار الشهوات ، وانطفأ نور القلب ، اذا نسى الانسان
الموت ، وعكف على الحياة يعبدها ، اذا غلا الجماد والمعادن ،
ورخص الانسان في سوق العالم ، فصارت المدن العامرة تسوى
بها الأرض ، والوف من البشر يقتلون في دقائق وثوان بالقنبلة
الذرية . اذا تغلبت الأمم الأوربية على العالم ، وجعلته بيت
المقامرين ، أو سوق الجزارين ، وعبثت بالانسانية عبث الوليد
بجانب القرطاس ، وتلاعبت بالأمم كالكرة . اذا ظهر الفساد في
البر والبحر بما كسبت أيدي الناس . هنالك يستصرخ هذا
الكون المؤمن ، ويستغيث به ، وهنالك تناديه الانسانية باسم
الاسلام الذي طلع كالصبح الصادق في ظلام الليل الحالك ، وباسم
محمد صلى الله عليه وسلم الذي اغاث الله به الانسانية في

احتضارها وانتحارها ، وحفظ به مهجة الانسانية ، وادال به من
الجاهلية الجهلاء .

فهل يسمع المؤمن في جزيرة العرب التي أشرقت منها شمس
الاسلام ، وفي حواضر البلاد العربية في آسيا وأفريقيا ، وفي الأقطار
الاسلامية عامة ، صراخ الانسانية وعويلها ، فيهب من نومه العميق
الطويل الذي مله العالم ، ويشب كالأسد ، وينقض كالصقر على
أعداء الانسانية . انه بذلك لجدير وبحول الله على ذلك قدير ،
فهو معقل الانسانية ، ومنتهى الرجاء ، وأمين الله في الأرض وخليفة
الأنبياء .

يدعون سيارا اذا احمر القنا ولكل يوم كريحة سيار

* * *

6

بين الصورة والحقيقة (١)

ان كل شيء له صورة وحقيقة ، وبينهما فرق كبير رغم الشبه العظيم ، تميزون بينهما بسهولة في حياتكم ، وتعاملون الحقيقة بما لا تعاملون به الصورة ، واضرب لذلك مثلين : هذه مثل للثمار المصنوعة من الخزف ، تتراءى للناظر كأنها تفاح ، ورمان ، وبرتقال ، وعنب ، وموز ، في لونها وشكلها ، ولكن أين الصورة من الحقيقة وأين طعم هذه الثمار ورائحتها ؟ انها ليست الا للزينة أو المثال .

انكم تزورون في المتحف كل نوع من السباع والانعام ، والطيور الجميلة ، والعصافير الصغيرة ، ففيها الأسد ، والذئب ، والأفيال والدباب ، وفيها كل طائر جارح ، وكل سبع مخيف ، ولكنها جثث هامة لا حراك بها ، وأجساد ميتة محشوة بالليف والقطن ، ليس فيها رفق من حياة ، وقوة تهجم بها وتصل ، حتى لا تحس منها من أحد ولا تسمع لها ركزا .

ان الصورة لا تستطيع أن تسد مكان الحقيقة وتنوب عنها ولا يمكنها أن تمثل دور الحقيقة في الحياة وتأتي بما تأتي به من عمل ونشاط ، ولا يمكن أن تقاوم الحقيقة وتكافحها . فاذا وقع صراع بينهما انهارت الصورة ، ولا يمكنها أن تحتل عبء الحقيقة ، فاذا وكل أحد الى الصورة وظيفه الحقيقة أو عول عليها في مهمة خانتها الصورة وخذلتها أحوج ما يكون اليها .

(١) محاضرة ألقاها المؤلف في حفل عام ، حضره آلاف من المسلمين ، عقدته جماعة التبليغ في سنة ١٩٤٩ م في لكنؤ (الهند) ، ونقلها الى العربية ابن أخ المؤلف الأستاذ محمد الحسنی .

والصورة ولو كانت مهيبة هائلة تغلب عليها الحقيقة ولو كانت ضعيفة متواضعة ، لأن الحقيقة الحقيرة اقدر واغوى من الصورة العظيمة المهيبة ، وان الولد يقدر ان يسقط الاسد الميت المحشو بالليف والقطن بيده الضعيفة الناحلة ، لأن الولد يحمل حقيقة ولو حقيقة صغيرة ، والاسد ليس الا صورة ولو كانت صورة مهيبة .

ان هذا العالم الذى تعيش فيه عالم الحقيقة والامر الواقع ، وقد خلق الله كل شئ على حقيقته : فللمال حقيقة ، وجه فطرى طبعى ، ولأجل ذلك وردت عنه الأحكام ووضع الله فيه التأثير والجذب ، ولالأولاد حقيقة ، والحنان اليهم وحبهم فطرى ، ولأجل ذلك وردت الأحكام فى الشرع عن تربيتهم وتعليمهم . وكذلك للحاجات الطبيعية والميول الفطرية حقيقة لا تجحد ، ولاتغلب تلك الحقائق الا حقيقة اقوى ورغبة اعظم واشد .

اننا نحتاج الى حقيقة الاسلام والايمان للظفر على الحقائق المبثوثة فى العالم . اما صورة الاسلام فهى عاجزة عن أن تفهر هذه الحقائق وتنتصر عليها ، وان كانت حقائق ممزوجة بالباطل لأن الصورة المجردة لا تنتصر على أى حقيقة .

ولذلك نرى اليوم باعيننا ان صورة الاسلام اصبحت لا تغلب على الحقائق المادية الحقيرة ، لأن الصورة ولو كان ظاهرها مقدسا رائعا ليس لها سلطان وتأثير ، وان صورة اسلامنا وصورة كلمتنا وصلاتنا اليوم لا تقدر ان تغلب على عاداتنا الحقيرة ، وتفهر شهواتنا الخسيسة ، او تثبتنا على جادة الحق عند البلاء والامتحان .

ان الكلمة التى كانت من قبل ذات سلطان عجيب على القلوب والأرواح ، وكانت تهون على الناس ترك المألوفات وقهر الشهوات

والشهادة في سبيل الله وبذل الأرواح والأنفس لله ، واحتمال المكاره وتجرع المرائر في سبيل الله ، هي عاجزة عن أن تحمل الناس على ترك فرشهم بعد أن استغرقوا في النوم طول الليل ، ويقوموا لصلاة الفجر ! نعم ، الكلمة التي كانت تغلب على شهوة الخمر ، فتحول بين الانسان وبين الكأس وهي على راحته ، فيمتنع عن شربها لأن الدين يمنع من ذلك ، ولأن الكلمة تأبى عليه أن يشرب الحرام ، ها هي الآن قد أصبحت لا تملك أمرا ولا نهيا .

سرح طرفك في تاريخ الاسلام وتجول في فصوله وأوراقه ، يظهر لك أن كلمة الاسلام التي كان الصحابة وكان المسلمون في القرون الأولى يتلفظون بها ، كانت ذات حقيقة ثابتة ، وكانت كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين باذن ربها . وكلمتنا نحن الفاظ مجردة ، ونطق فارغ ، ولأجل ذلك ترى عدم تأثيرها في حياة الأمة . ثم اننا مع ذلك نحاول أن نطبق حياة اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم على حياتنا ، ونرجوا أن تؤتي هذه الكلمة أكلها كل حين ، وتحدث ما أحدثت في الماضي ، حتى إذا لم يكن ذلك بطبيعة الحال تساءلنا وقلنا : « السنا مسلمين ؟ السنا نصلي ونصوم ؟ الا نتلفظ بكلمة الاسلام ونردها صباح مساء ؟! فلماذا هذا الفرق الهائل بين عهدنا وعهد الخلفاء الراشدين ؟! ولماذا هذا البون الشاسع بين حظنا وحظهم ؟! واين ثمرات شجرة الايمان ؟! واين نتائج الصلاة والصيام ؟! واين ما وعد الله من النصر المبين ، والاستخلاف والتمكين ؟! » .

لا تخدعنا أنفسنا !! ولنعلم أنهم كانوا اصحاب جد وحقيقة في الدين . لقد كانت كلمتهم حقيقة ، وكانت صلاتهم حقيقة ، ونحن متجردون عن هذه الحقائق ، فرجاء أن تثمر الصورة ما أثمرت الحقيقة وتغنى غناءها ، انما هو وهم وخيال ، وضرب من المحال .

أما قراتم في التاريخ أن خبيبا رضى الله عنه رفعوه على الخشبة ، وتناولوه بالرماح والأسنة ، حتى تمزق جسمه وهو قائم لا يشكو ولا يئن ، فقالوا له : « أتحب أن يكون محمد صلى الله عليه وسلم مكانك ؟ » فيضطرب ويقول : « والله لا أحب أن يفدينى بشوكة يشاكها في قدمه ! » يا أبناء الاسلام ! ان الذى ثبته في هذا المكان ، والهمه أن ينطق بمثل هذه الكلمة العريقة في حب الرسول هل هى صورة الاسلام ؟ لا ، بل هى الحقيقة التى مثلت بين عينيه الجنة ، والرماح تنوشه وتعبث بجسمه ، وناجته ، وقالت : صبرا يا خبيب ، فما هى الالمات وثوان ، وهما هى الجنة تنتظرك ، ورحمة الله ترتقبك ، فاذا احتملت آلام هذا الجسد الفانى والحياة الزائلة العابرة ثلت السعادة الدائمة ، والحياة الباقية .

هذه هى اللذة الروحية وحقيقة الحب والايمان التى أبت على خبيب أن يطلق ويؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشوكة في قدمه ، فهل تستطيع الصورة أن تحمل صاحبها على هذا الاخلاص والتفانى ، والثبات على العقيدة والصبر على الموت ؟! كلا ان الصورة لا تستطيع أن تقاوم الشدائد والآلام ، بل حتى الخيالات والأوهام . وقد بدا لنا ذلك في الاضطرابات الطائفية الماضية في الهند ، فان أناسا من المسلمين قد غيروا صورة الاسلام خوفا مما مر بخاطرهم من الفرع ، وخشية الموت ، وما دار في رؤوسهم من معارك خيالية حامية ، واختاروا شعار الكفر ، وذلك لأن هؤلاء الناس قد كانوا متحلين بالصورة ، فارغين عن الحقيقة ..

هاجر سيدنا صهيب رضى الله عنه ، فلما كان في الطريق اعترضته جماعة من مشركى مكة وقالوا له : أتيتنا صعلوكا حقيرا ، فكثر مالك عندنا ، وبلغت الذى بلغت ، ثم تريد أن تخرج بمالك

ونفسك ؟ والله لا يكون ذلك ، وهناك قامت المعركة بين حقيقة الاسلام وحقيقة المال ، ودارت بينهما رحى الحرب ، فانتصرت حقيقة الاسلام على ضدها ، وقال لهم صهيب : « أرايتم ان جعلت لكم مالى اتخلون سبيلى ؟ قالوا : نعم قال : فائى قد جعلت لكم مالى (١) » وهكذا انطلق صهيب بدينه ، متجردا من ماله ، فرحا مسرورا كانه لم يفقد شيئا ، ولم يخسر شيئا .

وخرج سيدنا أبو سلمة بزوجه وابنه يريد المدينة ، فلما رآه رجال من بنى المغيرة قاموا اليه فقالوا : هذه نفسك غلبتنا عليها ، أرايت صاحبتنا هذه ، علام نتركك تسير بها فى البلاد؟! ونزعوا خطام البعير من يده ، وأخذوها منه ، وأخذ بنو عبد الأسد سلمة ولده الصغير ، هناك اصطدمت حقيقة الاسلام بحب الزوج والولد ، فما لبثت أن انتصرت عليه ، وغادر أبو سلمة زوجه وولده تحت رعاية الله ، وهاجر وحيدا ، هل الصورة تستطيع ذلك ؟ وهل يقدر أصحابها على ترك الزوجات والأولاد فى سبيل العقيدة والدين ؟ كلا ! بل سمعنا أن أناسا قد ارتدوا عن دينهم للمال ، والأزواج ، والأولاد ، وغير ذلك من متع الدنيا وزخارفها .

كان أبو طلحة مقبلا على صلاته ، فاذا طائر يدخل فى بستانه ثم لا يجد الطريق للخروج ، ويميل اليه قلب أبى طلحة ، فلما انصرف من صلاته تصدق بهذا البستان ، لأنه لا يحب أن يشغله شيء عن حقيقة صلاته ، وينازع قلبه !

ان للبستان حقيقة ، ولثمره واكله حقيقة ، ولا تغلب هذه الحقائق الا حقيقة الاسلام ، وان صلاتنا اليوم مجردة عن الحقيقة ولذلك لا تقدر أن تقاوم أدنى الحقائق المادية .

(١) سيرة ابن هشام (ج ٢ ص ١٢١) .

لقد كان في حرب اليرموك بضعة آلاف من المسلمين ، وأما الروم فقد كان عددهم يبلغ مائتي ألف أو يزيدون ، فإذا نصراني كان يقاتل تحت لواء المسلمين يقول : ما أكثر الروم وأقل المسلمين ، فيقول خالد رضي الله عنه : والله لوددت أن الأشقر براء من توجيهه ، وأنهم أضعفوا في العدد (١) .

بم كان خالد رضي الله عنه مطمئنا ، ولم لم يشغل خاطره هذا العدد الهائل ولم لم تكبر في عينه جنود الروم الكثيفة ذلك ؟ لأنه كان مؤمنا بالله واثقا بنصره . ولأنه كان يعلم أنه على الحقيقة ، وأن مقابله صورة فحسب ، وأن الروم صورة فارغة عن الحقيقة ، وكان يعتقد أن الصورة مهما كثرت ، لا تقدر أن تقاوم حقيقة الاسلام .

لا شك أننا نتلفظ بكلمة الشهادة والتوحيد ، ومنا من يعرف ما يقول ، ولكن الصورة شيء والحقيقة شيء آخر ، ان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين الصادقين كانوا على حقيقة هذه الشهادة ، فإذا قالوا لا اله الا الله اعتقدوا أنه لا اله غيره ، ولا رب غيره ، ولا رازق غيره ، ولا نافع ولا ضار الا هو ، له الملك والحكم ، والخلق والأمر ، وبيده ملكوت كل شيء ، يجبر ولا يجار عليه ، وأخلصوا له الحب ، والخوف ، والسؤال والرجاء ، والعبادة ، والدعاء ، وأصبحوا عبادا حنفاء ، شجعانا أقوياء ، لا يهابون العدو ، ولا يخافون الموت ، ولا يبالون بلومة لائم .

نرجع الى أنفسنا ، ونفكر هل هذه هي الحقيقة متغلغلة في أحشائنا ، ومتسربة في عروقنا وشرائيننا ، وهل غرس حياتنا يسقى بهذا الماء ؟ معذرة وعفوا أيها السادة ، انا أخاف أن لا يكون

(١) الأشقر فرس خالد وكان قد حفا واشتكى في مجيئه من العراق .
(البداية والنهاية ج ٨ ص ٩) .

الأمر كذلك ، وأن نصيب الصورة في حياتنا أكثر من نصيب الحقيقة ، وذلك موضع الضعف في حياتنا ، وسر شقائنا ومصائبنا اننا جميعا نؤمن أن الآخرة حق ، والجنة حق ، والنار حق ، والبعث بعد الموت حق ، ولكن هل اننا حاملون لحقيقة الايمان كأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ومن تبعهم باحسان ؟ وقد سمعنا أن أحدهم سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : قوموا الى جنة عرضها السموات والأرض فرمى بما معه من التمر وقال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه ، إنها لحياة طويلة ، وقتلهم حتى قتل ، لأن الجنة كانت عنده حقيقة لا يشك فيها ، فمن أيقن يقول كأنس بن النضر : انى لأجد ريح الجنة من دون أحد .

أتى رجل من المسلمين يوم اليرموك وقال للأمير : انى قد تهيأت لأمرى ، فهل لك من حاجة الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال نعم ! تقرأه عنى السلام وتقول : يا رسول الله انا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً .

أفيقول هذا الا من يوقن أنه مقتول في سبيل الله ، وملاق رسول الله ومجتمع به في نعمة الله ، وأنه مكلمه ومحدثه ، فاذا حصل لرجل مثل هذا اليقين ، فما الذى يمنعه من استقبال الموت ، وما الذى يحول بينه وبين الشهادة ؟!

ان اكبر انقلاب وقع في تاريخ هذه الأمة ، هو أن الصورة احتلت مكان الحقيقة ، واستولت على حياة الأمة ، وذلك من بعيد في التاريخ ، والذين كانوا يرون الصورة من بعيد يعتقدون أنها الحقيقة ، ولذلك يذعرون ويشفقون من قربها ، فكانت هذه الصورة الاسلامية كمجدار ينصبه الفلاح في حقله كيلا يحل فيه الطير والوحش ، ولا تزال الطيور والوحش تظن أنه انسان ،

أو حارس ، فلا تقربه حتى يتشجع غراب ذكى ، أو حيوان جرىء فيجد أنه ليس بشيء ، هنالك تدخل الطيور والوحش في هذا الحقل وتعيث فيه ، وتتلغ زرعه ، وقد وقع للمسلمين نفس الحادث ، لقد حرستهم صورة الاسلام مدة طويلة جدا ، فلم تجترىء عليهم أمم العالم ، ولم يدر بخلد احد أن يمتحن هذا الشبح المخيف ويتحققه .

ولكن حتى متى ؟ لما أغار التتار على بغداد ، افتضح المسلمون وظهر افلاسهم في الروح والقوة المعنوية ، من ذلك الحين أصبحت الصورة عاجزة عن أن تحافظ عليهم ، وتذود عنهم المكروه وتدفع عنهم غارات الأمم ، فان الصورة لا تقوم الا على الجهل والغرور ، فاذا انكشف الفطاء وزاح الستار ، تبين الصبح لذى عينين .

وان ما ترى ونقرأ في تاريخ الاسلام من أخبار انكسار المسلمين وهزيمتهم في ميادين القتال ، ان كل ذلك أخبار اخذال الصورة وفضيحتها لا غير ، وقد فضحتنا الصورة في كل معركة وحرب ومقاومة واصطدام ، ولكن الذنب علينا ، حملنا الحقيقة على ظهر الصورة ، فلم تستطع حمله ولم تمسكه ، وعقدنا الآمال الكبار بالصورة الضعيفة فخيبت رجاءنا ، وكذبت أمانينا ، وخدلتنا في الميدان .

تكرر الصراع بين صورة الاسلام وشعوب العالم وهجنودها ، وفي كل مرة نخذل وتنهزم الصورة ، ويعتقد الناس أنه هزيمة الاسلام وخذلانه ، وبذلك هان الاسلام في عيون الناس وزالت مهابته عن القلوب ، ولا يدرى الناس أن حقيقة الاسلام لم تتقدم الى ساحة الحرب منذ زمن طويل ، ولم تنازل أمم العالم ، وان

الذى يبرز في الميدان هو صورة الاسلام لا حقيقته ، وخلق بالصورة أن تنهزم ، وتضمحل أمام الواقع والأمر الجد .

هاجمت بعض الدول الأوروبية في الحرب الأولى تركيا الإسلامية تركيا التي أرعبت أوروبا كلها ، وهزمت دولها مرة بعد مرة ، وكانت تركيا في هذه المرة حاملة لصورة شاحبة للإسلام ، وقد فقدت شيئاً من حقيقة الإيمان ، فشلت في المقاومة وفقدت كثيراً من ممتلكاتها .

واجتمع سبع دول عربية لمحاربة الصهيونية في فلسطين ، وكانت هذه الدول العربية عيلة الروح ، وقد أطفأت المادية الأوروبية جمرة القلوب وشعلة الجهاد في سبيل الله ، وحبت إليها الحياة واللذات ، ثم انها تتخلف تخلفاً كبيراً في المعدات الحربية والتنظيمات العصرية ، فكانت الحرب بين العرب المسلمين واليهود الصهيونيين صراعاً بين صورة الإسلام وحقيقة القوة والتنظيم والحماسة ، فكانت نتيجة هذه الحرب نتيجة كل صراع بين الصورة والقوة .

ان الصورة لها منزلة ومكانة عند الله تعالى ، لأنه قد عاشت فيها الحقيقة قروناً طويلة ، ويحبها الله لأنها صورة أوليائه ومحبيه وكذلك تعرف لها الفضل ، لأن الانتقال من صورة الإسلام إلى حقيقة الإيمان أسهل بكثير من الانتقال من حقيقة الكفر أو صورته إلى حقيقة الإيمان والإسلام ، فلنحافظ على هذه الصورة ولنتمسك بها ، ولكن لا ينبغي أن نقنع بها ونستهين بالحقيقة والروح .

يا أبناء الإسلام ، ان وعد الله من النصر والفتح في الدنيا ، والنجاة والغفران في الآخرة ، كل ذلك محصور في حقيقة الإسلام ، وذلك قوله تعالى : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الأعلون ان كنتم

مؤمنين (١) « لا شك فان الخطاب في هذه الآية للمسلمين ، ومع ذلك اشترط الايمان للعزة في الأرض والعلو والشوكة ، وقال في موضع آخر : « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (٢) » وقال أيضا : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعلموا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (٣) » ورغم أن جميع تلك الوعود كآتت على أساس الايمان والأعمال الصالحة اشترط أن يكون في المسلمين حقيقة الايمان والتوحيد .

ان أكبر مهمة دينية في هذا العصر ، وأعظم خدمة ، واجلها للأمة الإسلامية ، هى دعوة السواد الأعظم للأمة وأغلبيتها الساحقة الى الانتقال من صورة الاسلام الى حقيقة الاسلام ، فمثل هذا فليعمل العاملون ويبذلوا جهودهم ومسايعيهم فى بث روح الاسلام فى جسم العالم الاسلامى ، ولا يدخرون فى ذلك وسعا ، فبذلك يتحول شأن هذه الأمة ، وفى نتيجته شأن العالم بأسره ، فان شأن العالم تبع لشأن هذه الأمة ، وشأن الأمة تبع لحقيقة الاسلام ، فاذا زالت حقيقة الاسلام من الأمة المسلمة ، فمن يدعو العالم الى حقيقة الاسلام ، ومن ينفع فيه الروح ؟ قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه : « انتم ملح الأرض ، فاذا زالت ملوحة الملح فماذا يملح الطعام ؟ » .

قد أصبحت حياتنا اليوم جسدا بلا روح ، لأن السواد

(١) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران .

(٢) آية ٥١ من سورة غافر .

(٣) الآية ٥٥ من سورة النور .

الأعظم للأمة مجرد عن الروح ، فارغ عن الحقيقة ، فكيف تعود الروح والحقيقة في الحياة الانسانية مرة أخرى ؟!

ان في هذا العالم امما لا تزال فارغة عن الحقيقة والروح منذ أقدم العصور الى يومنا هذا ، ولم يبق فيها الا عدة معتقدات مرسومة ، وبضع صور حقيرة مجردة عن الروح ، وانتهت حياتنا الدينية والروحية الحقيقية ، حتى ان انشاء امة بأسرها أيسر من اصلاح هذه الأمم وتجديد حياتها الدينية والخلقية ، والذين نهضوا لاصلاحها ، وبذلوا قصارى جهدهم في هذا السبيل قد اخفقوا ولم يفلحوا في مهمتهم ، رغم الوسائل العظيمة الكثيرة التي حدثت في هذا العهد من الطبع والنشر ، والتأليف والاذاعة ، والتعليم والتربية ، وطرق الدعاية والتأثير ، وذلك لأن عروة دينها قد انفصمت انفصاما تاما ، وانقطعت علاقتها عن منبع الحياة الدينية ، والخلقية والروحية .

أما الأمة الاسلامية فلا تزال - على علاقتها وضعفها - مستمسكة استمساكا ما بعروة الدين ، وهي الايمان بالله والرسول ، واليقين بالدار الآخرة والحساب ، لم تتركها البتة ، ولم تنقطع عنها انقطاع الأمم الأخرى ، بل ان ايمان كثير من عامة المسلمين ودهمائهم يزرى بايمان كثير من خواص الأمم الأخرى ، وعليتهم ، ويفوقه متانة ورسوخا وحماسة ، ثم ان كتابها لا يزال في يدها لم يتناوله التحريف ، ولم يعبث به العابثون كما فعلوا بالصحف الأولى ، ولا تزال سيرة الرسول وأسوته الحسنة بمتناول يدها ، فالدعوة الى الدين ميسورة ، والتجديد ممكن ، والقلوب متهيئة ، وجمرة الايمان سريعة الاتقاد ، والشقة بين الصورة والحقيقة قصيرة ، والقنطرة بينهما الدعوة الى تجديد الايمان ، والرجوع الى الدين ، والتشبع بروحه والتحلى بحقيقته .

لست قانظا من ظهور حقيقة الاسلام في هذا العصر ، ولانصدق
أبدا بأن الزمان قد تغير والمسلمين قد ابتعدوا جدا عن روح
الاسلام ، فلا أمل في حقيقة الاسلام وغلبيتها من جديد ، انظروا
الى ورائكم ترون جذور حقيقة الاسلام قائمة منتشرة في فجر
التاريخ ، وان الحقيقة لم تزل تطفو كلما رسبت وتظهر كلما
اختفت ، وكلما ظهرت حقيقة الاسلام وتجلت في ناحية من نواحي
العالم الاسلامي أو عصر من عصور التاريخ الاسلامي ، غلبت
وانتصرت ، وكذبت تجارب الناس وقياسهم وتقديرهم ، وكادت
الأحوال والأمر أن تعود الى ما كانت عليه في الماضي السعيد ،
وهبت على قلوب الناس نفحات القرن الأول ، وان حقيقة الاسلام
في هذا العصر اذا ظهرت وتمثلت في جماعة ، تستطيع أن تذلل
كل عقبة ، وتهزم كل قوة ، وتأتي بعجائب وآيات من الايمان
والشجاعة والايثار ، يعجز الناس عن تحليلها كما عجزوا من قبل
عن تحليل حوادث الفتح الاسلامي ، واخبار القرن الأول .

* * *

ثورة في التفكير (١)

اننا - معشر المسلمين - في حاجة الى ثورة ، ثورة في التفكير . منذ قرون طويلة بدأنا ننظر الى أنفسنا كمجموعة بشرية موزعة في العالم ، منتشرة في البلاد ، ذات قوميات مختلفة ، ولغات متنوعة ، وثقافات محلية ، محاطة بظروف ، وأجواء خاصة ، « وامكانات » محدودة ، تجمع بين فروعها المختلفة ، وأسرها المتشعبة « وحدتان » اثنتان لا ثلاثة لهما ، « العقيدة » والخضوع للغرب ، والانعصار عليه في المعيشة والسياسة .

ومنذ مدة طويلة بدأنا نزن أنفسنا ، وقيمتنا ، ومكانتنا في خارطة العالم بهذه الطاقات « والامكانات » ، وبما نملكه من الوسائل ، والمواد الخام ، وحواصل البلاد ومنتجاتها ، وعدد النفوس والقوة الحربية ، فنرى كفتنا راجحة في اقليم ، طائشة في آخر ، راجحة في حين ، طائشة في حين آخر .

ومنذ مدة طويلة آمنا بسيادة الغرب وقيادته ، وأنه أمر مقرر وواقع ليس منه مفر ، وآمنا بأنه وضع لا يقبل التحول ولا التطور ، وتجدد المثل القديم ، وأصبح عقيدة شائعة : « اذا قيل لك أن التتر انهزموا فلا تصدق (٢) » .

واصبحنا لا نفكر في معارضة الغرب ، ومناقشة سيادته وجدارته للسيادة ، واذا فكرنا في ذلك - على حين غفلة من

(١) مقال كتبه المؤلف افتتاحية لمجلة « المسلمون » الصادرة في جنيف .

(٢) كذلك الجملة الماثورة الشائعة في المجتمع الاسلامي في القرن السابع عند غزو التتار للعالم الاسلامي واخضاعه من اقصاه الى اقصاه .

العلم ، والدراسة والكياسة - استعرضنا طاقاتنا ، ووسائلنا والقوة الحربية في بلادنا ، وسهمنا من المخترعات الحربية ، والطاقات الذرية ، فاستولى علينا اليأس والتشاؤم ، وآمنا بأننا لم نخلق الا للخضوع والخنوع ، ولنعيش على هامش الحياة ، وعيالا على الغرب ، مرتبطين ومعقودى النواصي بأحد المعسكرين المتنافسين .

وهكذا يفكر العرب ، وهكذا يفكر المسلمون في باكستان ، وفي اندونيسيا وفي تركيا .

وهكذا يفكر الناس في اليابان ، وفي الصين ، وفي الهند ، وفي سيام ، وفي بورما .

هذا هو التفكير « السليم » وهذا هو المنطق « السديد » - كما يسميه الناس - وهذا هو الاستنتاج العلمى المبني على الدراسة ، والايمان بقوة الاسباب ، وطبيعة الأشياء .

ولكن هناك جماعة لا تقبل هذا التفكير ، ولا تؤمن بهذا المنطق ، بل تثور على هذا المنهج الفكرى ثورة قوية عارمة ، ان لها منهجا - فى العمل - مختصا بها ، والى هذا المنهج يرجع الفضل فى افضل الثورات ، وأصلحها وأقواها فى التاريخ ، وفى تغير الاوضاع فى العالم تغيرا مدهشا ، وفى سعادة البشرية بعد الشقاء الطويل ، وصلاح المجتمع البشرى بعد الفساد الشامل .

ولا أمل للامم الضعيفة الا فى هذا المنهج ، ولا مستقبل للامم - التى تؤمن بالمبادئ ، وتحتضن الدعوات - الا فى هذا المنهج .

ولنفهم هذا المنهج ، وقوته ، وفضله ، ونتائجها الباهرة للعقول ، نرجع قليلا الى الماضى ، ونستوحى « الصحف الصادقة » . يولد موسى فى مصر فى بيئة قائمة خائقة ، قد

انطبقت على بنى اسرائيل كل الانطباق ، وسدت في وجوههم المنافذ والابواب ، حاضر شقى ، ومستقبل مظلم ، وقلة عدد ، وفقر وسائل ، وذلة نفوس ، عدو قاهر ، وسخرة ظالمة ، لا قوة تدافع ولا دولة تحمى ، أمة مصيرها معلوم محتوم ، قد خلقت للشقاء والفناء .

ويولد موسى ، وولادته وحياته كلها تحد لفلسفة الاسباب ، ومنطق الاشياء ، أراد فرعون أن لا يولد فولد ، وأراد أن لا يعيش فعاش ، يعيش في صندوق خشبى مسدود ، وفي ماء النيل الفائض ، وينشأ في حضانة العدو ورعاية القاتل ، ويجد به الطلب القوى الساهر ، فيفلت وينجو ، ويأوى الى ظل شجرة كثيبا غريبا فيجد الضيافة الكريمة ، والزواج الحبيب ، ويرجع بأهله فيلغه الليل المظلم والطريق الموحش ، وتتمخض زوجته فيطلب لها نارا تصطلى بها ، فيجد نورا يسعد به بنو اسرائيل ، ويهتدى به العالم ، يطلب النجدة والمدد لامرأة واحدة ، فيجد النجدة والمدد للانسانية كلها ، ويكرم بالنبوة والرسالة .

ويدخل على فرعون في أبهته وسلطانه ، وفي ملأه وأعوانه ، وهو المطلوب بالامس قد تحققت عليه الجناية ، وتوجهت اليه الدعوى ، وفي لسانه حبسة ، وفي موقفه ضعف ، فيقهر فرعون وملأه بدعوته وإيمانه ، وحجته وبيانه ، ويلجأ فرعون الى سحرة مصر ليقهر بفنهم معجزة موسى التى ظننها فنا وسحرا ، فاذا بالسحرة خاضعون خاشعون ، يقولون : « آمنا برب العالمين رب موسى وهارون » .

ويؤمر بالخروج ببنى اسرائيل والاسراء فى الليل من ارض الظلم الى ارض النجاة ، ويتبعه فرعون بجنوده ، ويصبح موسى والبحر أمامه والعدو من ورائه ، ويخوض البحر فينفلق ويكون

كل فريق كالطود العظيم ، ويعبر موسى وقومه ، ويتبعهم فرعون
بجنوده فيلتهمهم البحر الهائج .

وهكذا يهلك فرعون وقومه الأقوياء الأغنياء ، ويملك
بنو اسرائيل الضعفاء الفقراء : « وأورثنا القوم الذين كانوا
يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التي باركنا فيها ، وتمت
كلمة ربك الحسنی على بنی اسرائيل بما صبروا ، ودمرنا ما كان
يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون (١) » .

ما هي القوة التي قهر بها موسى أعظم قوة في عصره ومصره ،
وما سر انتصار بنی اسرائيل على أعدائهم ، وما سلاحهم الذي
واجهوا به العدو القاهر الكاسر ، واخضعوا به المحيط الخائق
الشائر ؟ .

اقرا قصة موسى - في القرآن - من جديد ، تر ان السلاح
الذي واجه به موسى فرعون وقومه ، وانتصر به بنو اسرائيل
وتبواوا الامامة والزعامة في مصر وحولها ، هو « الايمان »
« والطاعة » « والدعوة الى الله » ويتجلى هذا الايمان وهذه
الطاعة والدعوة في ثنايا القصة ومطاويها ، وقد تجلى هذا الايمان
النبوي في دعوة فرعون وقومه ، وبه تغلب موسى على حجاج
فرعون ودهائه ، هو يريد ان يشغله عن موضوعه ويثير عليه
الملا وهو ثابت على دعوته ، ثابت في ايمانه لا يتزعزع ولا يتزلزل ،
ولا يتحول ولا يتغير ، قال فرعون : « وما رب العالمين ؟ قال :
رب السموات والأرض وما بينهما ان كنتم موقنين . قال لمن
حوله : الا تستمعون ؟ قال : ربكم ورب آبائكم الاولين ، قال :

(١) الآية ١٢٧ من سورة الاعراف .

ان رسولكم الذى ارسل اليكم لمجنون . قال : رب المشرق
والمغرب وما بينهما ان كنتم تعقلون (١) » .

ويسأله فرعون عن الاجيال التى مضت ، وهو موضوع
شائك وسؤال محرج ، ولكن موسى يتغلب على دقة الموقف بإيمانه
الراسخ وحكمته النبوية ، فيقول : « علمها عند ربى فى كتاب
لا يفضل ربى ولا ينسى (٢) » . ويفيض فى الحديث عن الاله
الواحد - الذى يفر منه فرعون - فيقول : « الذى جعل لكم
الأرض مهذا ، وسلك لكم فيها سبلا ، وأنزل من السماء ماء
فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى (٣) » .

ويتجلى هذا الايمان فى أبرز مظاهره ، لما رأى موسى أمامه
البحر المائج ، ومن ورائه العدو الهائج ، فلا متقدم ولا متأخر ،
وهو وقومه بين طبقتى الرحى ، ويناديه بنو اسرائيل فى جزع
وفى فزع : « قال أصحاب موسى : انا لمدركون (٤) » ولكنه ثابت
الجأش ، قوى الايمان ، يعرف أن الله ناصر عبده ، ومنجز
وعده ، يقول فى صراحة وثقة : « كلا ، ان معى ربى سيهدين » (٥) .

ويعيش بنو اسرائيل فى مصر حياة ذل وشقاء ، وبؤس
وفقر ، يعانون أفظع أنواع الظلم والاضطهاد ، وأقسى أساليب
الحكم والاستبداد ، فيؤمرون بالانابة الى الله وتقوية الايمان
وتحسين الصلة بالله ، ليستحقوا نصره ويوجد فى أنفسهم
صلاحية الوراثة والخلافة فى الأرض : « وأوحينا الى موسى

(١) الآيات ٢٣ - ٢٨ من سورة الشعراء .

(٢) الآية ٥٢ من سورة طه .

(٣) الآية ٥٣ من سورة طه .

(٤) الآية ٦١ من سورة الشعراء .

(٥) الآية ٦٣ من سورة الشعراء .

واخيه أن تبوا لقومكما بمصر بيوتا ، واجعلوا بيوتكم قبلة ،
وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين (١) » .

ولا طاعة أعظم من طاعة موسى ، وانتقياده واستسلامه للامر
الالهى ، يُؤمر بالتوجه الى أعظم ملوك عصره - وهو الثائر
الموتور ، شديد البطش ، عظيم السلطان - فيقال : « اذهب الى
فرعون انه ظفى (٢) » ويتوجه الى بلاط جبار يدعى الربوبية ،
فيدعوه الى الله الواحد القهار ، ويستمر فى دعوته وجهاده وفى
وعظه وارشاده حتى يفتح الله بينه وبين قومه بالحق وهو خير
الفتاحين .

لقد كان الايمان والطاعة والدعوة الى الله القوة التى واجهه
بها موسى « مشكلات عصره » وقهر بها أعظم امبراطورية على وجه
الأرض ، أرقاها مدنية ، وأوسعها رقعة ، وأغناها أسبابا ،
وأعظمها جبروتا .

لو كان موسى - كزعيم لبنى اسرائيل - يفكر تفكير الزعماء
السياسيين ، ويستعرض « الامكانيات » والوسائل التى يملكها
قومه ، ويزن كل شئ فى ميزان الواقع ، والحكمة العملية ، ولو
نظر - وهو الذى نشأ فى البلاط الملكى - الى العدد والعدة ، والعزة
والمنعة ، والجنود والبنود ، والثروة والذخائر التى كان يملكها
فرعون ، وقارن فى ذلك بين قومه وقوم فرعون ، لما جاز له - فى
شريعة العقل - أن يواجه فرعون بما يسوءه ، ولتحتم عليه أن
يقنع بحظه وحظ قومه ، ويرضى بالوضع السائد ، فلا ايمان
ولا صلاح ، ولا عدل ولا أخلاق ، ولا تقوى ، ولا انسانية .

(١) الآية ٧٨ من سورة يونس .

(٢) الآية ١٧ من سورة النازعات .

ولكنه نبي يرشده الوحي ، ولكنه مؤمن بقوة الله ويؤمن بنصر الله ، ولكنه داعية يفكر تفكير الدعاة ، وان هذا المنهج من التفكير والعمل هو الذى غير مجرى التاريخ ، وأتى بالمعجزات ، وادهش العقول ، وحير الالباب .

ولو كان الرسول الاعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم يفكر تفكير الزعماء ، ويستعرض الامكانيات والوسائل ، التى كانت تملكها قريش ، ولو أنه نظّر الى الامبراطوريتين العظيمتين اللتين توزعتا العالم المتمدن المعمور : الامبراطورية الرومية ، والامبراطورية الفارسية ، وما تتمتعان به من حول وطول ، وقد عرف قوتها وسعة مملكتها - وهو الفقيه الواعى - لما جاز له - فى شريعة العقل - أن يتوجه بدعوته الى الانسانية جميعا ، ويكتب الى سيدى العالم المعاصر ورئيسى الامبراطوريتين الغربية والشرقية ، يدعوها الى الاسلام ، ولبقى الوضع الذى كان يسود من قرون ، فمتى تملك هذه الحفنة البشرية التى آمنت به القوة التى تضارع قوة الامبراطوريتين بل تفوقها حتى تهزمها وتدحرها ؟ والى متى كان يجب عليه أن ينتظر ؟ وماذا كان مصير العالم ومصير الانسانية لو اتجه هذا الاتجاه وفكر هذا التفكير ؟

لقد شقيت الانسانية اذن شقاء طويلا ، وتأخر أو توقف طلوع الصبح الصادق ، ولكان للانسانية تاريخ غير هذا التاريخ .

ولكنه صلى الله عليه وسلم نبي يؤمر فيعمل ، ويتلقى التوجيه والارشاد من السماء فينفذ ، ولكنه مؤمن يؤمن بقوة الله ويؤمن بنصره ، ويؤمن بأن الضعيف مع نصره قوى ، والقوى يخذل لانه ضعيف ، ويؤمن بقول الله تعالى : « ان ينصركم الله فلا غالب لكم ، وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده ، وعلى الله فليتوكل

المؤمنون (١) « ويؤمن بقوله : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، والله مع الصابرين (٢) » ويؤمن بأن الله قد تكفل بنصر من ينصر دينه ، وينهض لاعلاء كلمته ، فقال : « يا ايها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم (٣) » وقال : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين : انهم لهم المنصورون ، وان جنونا لهم الغالبون (٤) » . ويؤمن بأن الله قد وعد بالانتصار والغلبة ، والعلو والسيادة ، لعباده الذين قد تحققت فيهم صفة الايمان ، وتجلت فيهم حقيقته ، فقال : « ولا تهنوا ولا تحزنوا وانتم الاعلون ان كنتم مؤمنين (٥) » ولم يعد بشيء من ذلك - من النصر والفتح ، والظفر والغلبة ، والعلو والسيادة - على الاهواء والنزعات ، والطموح والكبرياء وحب المجد - الفردي أو القومى - وشرف الدماء والانساب والبلاد ، والعصبية والقوميات ، فلم يتقدم بشيء من ذلك الى العالم ولم يطلب به النصر ؛ مع أنه صلى الله عليه وسلم من أشرف الامم ، وأفضل البيوتات ، وأقدس البلاد ، انما تقدم بدعوة دينية ، ومنهج خاص للحياة لا غنى للأمم وطوائف البشر عنه على اختلاف اوطانها وألوانها ولغاتها ، فخضعت له هذه الأمم وهذه الطوائف من البشر ولم تعقها عن ذلك عصبية أو قومية ، لأنه لم يكن من دعاة عصبية أو جاهلية وانما كان دين عام الانسانية ، وداعى عقيدة ومبدأ ومنهج فاضل للحياة ، ونصره الله على قلة وضعف وفقر ، ونصر كل من قام بهذه الدعوة الدينية وبهذا المنهج الخاص للحياة ، وتكفل بنصرهم الى آخر

(١) الآية ١٦٠ من سورة آل عمران .

(٢) الآية ١٤٩ من سورة البقرة .

(٣) الآية ٧ من سورة محمد .

(٤) الآية ١٧٣ من سورة الصف .

(٥) الآية ١٣٩ من سورة آل عمران .

الدهر ، فقال : « أولئك حزب الله ، ألا ان حزب الله هم
المفلحون (١) » .

اننى لست ممن يدعو الى رفض الأسباب والتوكل السلبى ،
ولست ممن يعيش فى عالم الخيال والأحلام ، ولست ممن ينكر
الحاجة الى الاستعداد ، وممن لم يقرأ قوله تعالى : « وأعدوا
لهم ما استطعتم من قوة (٢) » وقد لمت العالم الاسلامى ومن تزعمه
من الشعوب والدول لوما شديدا فى كتابى « ماذا خسر العالم
بانحطاط المسلمين » على التقصير فى الاستعداد الحربى
والصناعى ، والتخلف عن أوروبا فى ذلك ، واعتبرت ذلك سببا من
اسباب شقاء الانسانية واتجاه العالم من الرشاد الى الضلال ،
ومن البناء والأزدهار الى الهدم والدمار .

ولكنى اعارض هذا التفكير الذى تسلط على عقلية العالم
الاسلامى فى العهد الأخير ، وهو النظر الى الأمم الاسلامية - فى
مختلف أنحاء العالم - ككتل بشرية شأنها شأن القطعان البشرية
الأخرى التى لا رسالة لها فى العالم ، ولا دعوة لها للأمم ، توزن
فى ميزان الامكانيات والوسائل والاستعداد المادى ، وتقوم بما
تملكه ، من ثروة وذخائر ، والتناسى او الاعراض عن قوتها
الكبرى « الايمان ، والطاعة ، والدعوة الى الله » .

اننا يا قوم فقراء ضعفاء متخلفون فى العلم والصناعة ، وفى
الاقتصاد والسياسة ، المسافة بيننا وبين الأمم الاوربية مسافة
قرون وعهود ، فليكن ذلك موضع اهتمام الزعماء والقادة ، ولينل
ذلك كل عناية ورعاية .

(١) الآية ٣٣ من سورة المجادلة .

(٢) الآية ٦٠ من سورة الأنفال .

ولكننا في وقت واحد القوة الكبرى في العالم ، فعندنا دين هو حاجة البشرية كلها ، وعندنا دعوة تنقذ العالم من نهايته الأليمة التي تنتظره وتدنو اليه ، وعندنا الايمان الذي يخلق الأمانة والشعور بالمسئولية في النفوس ويخلق الدوافع القوية الى عمل الخير وخدمة الانسانية ، وقد حرمتها الأمم الزعيمة للعالم بعد ما ملكت كل الأسباب والوسائل لعمل الخير ، وخدمة الانسانية ، فأصبحت هذه الوسائل ضائعة بل متجهة الى القضاء على المدنية والانسانية ، وحاجة أوروبا في اقتباس هذا الايمان منا أشد واعظم من حاجتنا الى الاقتباس من صنائعها وعلومها ، لأن هذا الايمان هو الأساس ، وهو الوجه وهو الضابط ؟ وعندنا شريعة تحل جميع المشكلات والأزمات التي يواجهها المجتمع البشرى في القرن العشرين ، وعندنا - أولا وآخرا - نبى أرسل رحمة للعالمين « يهدى به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور ويهديهم الى صراط مستقيم (١) » .

الا فلنتجه بهذه الدعوة الى أوروبا الحائرة التائهة باخلاص ونزاهة ، وتوجع وشفقة ، وبقوة وثقة وايمان ، ولننظر الى أنفسنا كدعاة ومقننين ، مبشرين ومنذرين ، ونستخدم هذه القوة الجبارة في تغيير مصيرنا ومصير العالم ، ولنحتل بفضلها مكانة الزعامة والقيادة في ركب الانسانية ومصاف الأمم ، بعدما عشنا زمنا طويلا في مؤخر الركب وفي صف التلاميذ والحاشية ، ولنتجه بهذه الدعوة المقدسة المنصورة التي اما تقبل فترفع وتؤمن ، وأما ترفض فتهلك وتقهر ، بهذه الدعوة التي اوجب الله على نفسه نصرها ونصر رجالها .

ولنتجه بهذه الدعوة الى مجالات مهجورة ، وكنوز مطمورة في آسيا وفي افريقية ، الى الشعوب التي ملكت الوسائل والعلم

(١) الآية ١٦ من سورة المائدة .

والصناعة ، والبلاد الواسعة ، والعقول الخصبة ، والسواعد
القوية ، وجهلت الدين والغايات الصالحة ، والمبادئ الفاضلة ،
وهى مستعدة لقبول هذه الدعوة ، واذا قبلت هذه الدعوة وفقهتها
وأخلصت لها تغير مجرى التاريخ من جديد ، كما تغير فى العهد
الأول بإسلام الفرس والترك والديلم ، وفى العهد الأوسط بإسلام
التتار والمغول .

الا اننا فى حاجة الى ثورة ، الى ثورة فى التفكير والمنهج .

* * *

بين الجباية والهداية (١)

الدول والحكومات قسمان : دولة شعارها الجباية ، ودولة شعارها الهداية ، وكل لها طابع خاص ونفسية خاصة ، ورجال ممتازون ، ولكل نتائج متميزة .

فميزان الأشياء ومناط الاحكام في دولة الجباية هو تضخم الميزانية وكثرة الدخل والايراد ، ورفاهية رجال الحكومة واحتفال الحضارة وزهو المدنية ، وان كان ذلك بامتصاص دماء الفقراء ، وشقاء الفلاحين والعملة ، والضرائب المجحفة والمكوس المرهقة ، فلا يعنى هذا الضرب من الحكومة الا بما يزيد في مواردها ومالياتها، وبما يهيىء لها اسباب الفخار والزينة والابهة ، بما يهيىء للأمرء والوزراء ، وابنائهم وابناء ابنائهم ، والمتصلين بهم ورجال الحكومة واسرهم وخدمهم اسباب الترف والتنعم والبذخ ، وبما يبنون به قصورا فاخرة ، ويشترون به املاكا واسعة ، فى داخل البلاد وخارجها .

تفعل هذه الحكومة تربية الجمهور الدينية والخلقية ، وتعطل الحسبة والرقابة على الأخلاق والنزعات ، وتتغافل عن كل مالىس سبيلها ، وما لا يجر عليها فائدة مالية أو قوة سياسية ، وقد تبيح منكراً أو محرماً اذا كانت تجنى منه نفعا ، وتحرم مباحا اذا كانت تخاف منه خطرا سياسيا أو خسارة مالية ، ولا يزال الجشع والنهامة للمال تدفعها وتزين لها خطتها ، حتى تفرض ضرائب على العبادات ، وعلى الموت والحياة ، وهكذا تتحول من

(١) أصل هذا المقال رسالة شخصية وجهت الى ملك من ملوك العرب ، ثم طبعت كرسالة عامة موجهة الى جميع المسلمين ، وقادة الراى والفكر فى العالم الاسلامى .

حكومة ساهرة على مصالح الجمهور وراحتهم ومن مربية وحارسة
للأمة ، الى شركة تجارية كبيرة لا يهتمها الا جمع الأموال وزيادة
الأرباح .

أما الدولة التي شعارها الهداية ، فمهمتها الدعوة الى الله
والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ومعيارها تحسن أخلاق
الجمهور ، وسمو روحهم وتحليهم بالفضائل وإقبالهم على الآخرة ،
وزهدهم في الدنيا والقناعة في المعيشة ، واجتنابهم المحرمات
والمعاصي ، وتنافسهم في الخيرات ، ولو كان ذلك على حساب
ميزانيتهم وخسارة مالياتها ، فتتنصب الوعاظ ، وترسل الدعاة ،
وتشجع الحسبة ، وتمنع الخمر ، وتنكر على الفجور ، وتحرم
الملاهي والمعازف ، وتطارد المستهترين والخلعاء ، وتمنع كل
ما يفسد على الناس عقيدتهم وأخلاقهم ، ويفسد الحياة المنزلية ،
وتفص في حكمها المساجد ، وتقفر الحانات ، ويزدهر الدين
والتقوى ، وتضمحل المعاصي والجنايات ، ويقوم أهل الدين
والصلاح وينشطون ويتحمسون ، ويتوارى الفجار والملحدون
وينكمشون . ويكون ما وصفه الله تعالى : « الذين ان مكناهم في
الأرض : أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا
عن المنكر ، والله عاقبة الأمور (١) » .

يمتاز جهاز حكومة الهداية بأسره عن جهاز حكومة الجباية
بأسره ، يمتاز عنه في النزعات والروح ، والسيرة والمعاملة
والسلوك ، فنرى في الأول التطوع والاحتساب ، وروح الخدمة
والإيثار ، والامانة والتضحية والوفاء ، بينما نرى في رجال حكومة
الجباية معاكسة القانون ورجاله والاجتهاد في معاجزته والتفلت
منه ، والكبر والتجبر ، والآثرة والحيانة ، والنفاق والزور ، وفشو

(١) الآية ٤١ من سورة الحج .

الرشوة الى حد يدعو الانسان بين الركن والمقام ان لا يتلى منهم ، فلا ينال الانسان حقه من العدل والراحة ، ولا يتمتع بحقوقه المدنية الا اذا رضى من ماله لهذا وقدم طعمة لذلك . ويستفحل الأمر ويجل الخطب ، حتى لا يرى أحد في هذه الحكومة أنه خادم أمة وأمين حكومة ، لا يعد نفسه الا جاييا - ولكن لنفسه وعياله - قد منحت الحكومة فرصة جمع الأموال ، فلا يريد أن تفلته هذه الفرصة ويتخلف عن قافلة الجباة الشخصيين ، وقد اشتد بها الجد ، وجد بها السير .

لقد سبق في التاريخ أمثلة لكل من حكومات الجباية والهداية . أما حكومات الجباية فلا تحتاج الى تمثيل ولا الى شرح وبيان ، فانها هي السائدة الفاشية في الماضي والحاضر ، وفي الشرق والغرب ، وقد جربها الانسان وعرفها في كل عصر ، أما حكومات الهداية فهي نادرة جدا ، فلنضرب لها مثلا :

بعث محمد صلى الله عليه وسلم فدعا الناس الى الاسلام فالتف حوله : « فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وربطنا على قلوبهم اذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه الها لقد قلنا اذا شططا . هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة ، لولا يأتون عليهم بسلطان بين . فمن أظلم ممن افترى على الله كذبا (١) » . وكان هؤلاء الفتيان هدف كل قسوة وظلم ، واضطهاد وبلاء وعذاب ، وقد قيل لهم من قبل : « احسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين (٢) » فصمدوا لكل ما وقع لهم وثبتوا كالجبال ، وقالوا : « هذا ما وعدنا الله

(١) الآية ١٤ من سورة الكهف .

(٢) الآية ٣ من سورة العنكبوت .

ورسوله وصدق الله ورسوله (١) . حتى اذن الله في الهجرة ، ولم تزل الدعوة تشق طريقها وتؤتى أكلها حتى قضى الله أن يحكم رجالها في الأرض ، ويقيموا القسط ، ويخرجوا الناس من الظلمات الى النور ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، فقد عرف أنهم اذا تولوا وسادوا **« أقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وأمروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر » .**

وهكذا جاءت الدعوة بالحكومة كما تأتي الأمطار بالخصب والزرع ، وكما تأتي الاشجار بالفاكهة والثمر ، فلم تكن هذه الحكومة الا ثمرة من ثمرات هذه الدعوة الاسلامية . ولم تكن هذه العزة والقوة الا نتيجة ذلك العذاب الذي تحملوه من قریش وغيرهم ، وذلك الهوان الذي لقوه في مكة وغيرها .

جاءت الحكومة بما يتبعها من عزة وشوكة ، ورجال وأموال ، وكنوز وخزائن ، وجباية وخراج ، ورفاهة ونعيم ، وكان المجال واسعا جدا لجمع الأموال وحكم الرجال ، ورفاهية الحال اذا اختاروا طريق الملوك والسلاطين في فرض الضرائب الكثيرة ، والاتاوات المتنوعة والمكوس الجائرة .

التفت القوم فاذا دولتهم الوليدة على مفترق الطرق - طريق الجباية وطريق الهداية - هنالك سمعوا هاتفا يقول : ويحكم ان محمدا صلى الله عليه وسلم لم يبعث جابيا وانما بعث هاديا وانتم خلفاؤه « فلم يترددوا في ايثار جانب الهداية على جانب الجباية ، واتخاذ الدعوة والهداية شعارا ومبدأ لحكومتهم فكان ذلك .

لقد علموا أنهم لو آثروا جانب الجباية وأطلقوا ايديهم في أموال

(١) الآية ٢٢ من سورة الاحزاب .

الناس ، واسترسلوا الى النعيم ، ورتعوا في اللذات ، لم يحل بينهم وبين ذلك أحد ، ولم يقف في سبيلهم واقف . ولكنهم علموا أنهم لو فعلوا ذلك فقد غشوا اخوانهم الذين سبقوهم بالايمان ، وقضوا تحبهم بدون أن يأكلوا ثمار فرسهم ، لقد خانوا أولئك الذين لم يعرفوا الا الجهاد والتعب والجوع والسفب ، ولقد وصلوا الى الحكومة على جسر من متاعبهم وايشارهم . افيجوز لهم أن يستغلوها لمصلحتهم وشهواتهم ، وابنائهم ، ويتمرغوا في النعيم ، ويسرفوا في الاكل والشرب ؟ لقد ظلموا اذن عثمان ابن مظعون ، وحمزة بن عبد المطلب ، ومصعب بن عمير ، وأُس ابن النضر ، وسعد بن معاذ ، وكثيرا من رفقتهم الذين لم يروا شيئا من الفتوح والغنائم ، ولم يشبعوا اياما متواليّة ، وقف القوم ولم يطب لهم الاكل والشرب ، وأرادوا أن يلحقوا باخوانهم ولم يأخذوا من الدنيا الا البلاغ .

تأسست دولة الاسلام وفتحت فارس وبلاد الروم ، والشام ونقلت الى عاصمة الاسلام - المدينة المنورة - كنوز كسرى وقيصر ، وانصبت عليها خيرات الملكتين العظيمتين ، وانهال على رجالها من أموال هاتين الدولتين وطرفها وزخارفها ، ما لم يدر قط بخلداهم ، وقد انقضى على اسلامهم ربع قرن وهم في شدة وجهد من العيش ، وفي جشوبة المطعم وخشونة اللبس ، لا يجدون من الطعام الا ما يقيم صلبهم ، ولا من اللباس الا ما يقيهم من البرد والحر ، فاذا بهم اليوم يتحكمون في أموال الأباطرة والاكاسرة ، فاذا أراد الواحد منهم أن يلبس تاج كسرى وينام على بساط قيصر لفعل ، لقد كانت - والله - هذه محنة عظيمة ، تزول فيها الجبال الراسيات ، وتطير لها القلوب من جوانحها ، وتعمش لها العيون ، ولكنهم سرعان ما فطنوا أنهم ما وقفوا بين الفقر والغنى فحسب ، بل أنهم خيروا بين أن يتنازلوا عن دعوتهم وامامتهم ومبادئهم ، وينفضوا منها يدهم فلا يطعموا فيها أبدا ، وبين أن

يحافظوا على روح هذه الدعوة النبوية وعلى سيرة رجالها اللائقة
بخلفاء الأنبياء والمرسلين ، وحملة الدعوة المؤمنين المخلصين .

كان لهم أن يؤسسوا ملكا عربيا عظيما على انقاض الدولة
الرومية والفارسية ، وينعموا كما نعم ملوكها وأمراؤها من قبل ،
فقد ورثوا امبراطوريتين : الفارسية والرومية ، وجمعوا بين
موارد دولتين . فاذا كان كسرى يترفه بموارد فارس فقط ، واذا
كان هرقل يبذخ بموارد الروم فقط ، فهذا عمر بن الخطاب يمكنه
أن يترفه بموارد الامبراطوريتين ويبذخ بذخا لم يبذخه أحدهما .

كان له ولاصحابه كل ذلك بكل سهولة ، ولكنهم سمعوا
القرآن يقول : « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا
في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين (١) » .

وكانهم يسمعون نبيهم صلى الله عليه وسلم يقول قبل وفاته :

« فوالله لا الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى أن تبسط عليكم
الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما
تنافسوها ، وتهلككم كما أهلكتهم (٢) » .

فهتفوا عن آخرهم قائلين :

اللهم لا عيش الا عيش الآخرة . فاغفر للانصار والمهاجرة ،
وهكذا حافظوا على روح الدعوة الاسلامية وسيرة الأنبياء
والمرسلين ، وعاشوا في الحكومة كرجال الدعوة ، وفي الدنيا كرجال
الآخرة ، وملكوا أنفسهم في هذا التيار الجارف ، الذي سال
قبلهم بالمدنيات والحكومات ، والشعوب والأمم ، وسال بالمبادئ
والأخلاق ، والعلوم والحكم .

(١) الآية ٨٣ من سورة القصص .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

مازال الناس يعدون اقتحام المسلمين دجلة بخيلهم وجندهم تحت قيادة سعد بن أبي وقاص ووصولهم الى الشط الثانى من غير ان يصابوا فى نفس أو مال أو متاع حادثا غريبا من غريب ما وقع فى التاريخ ، ان الحادث لغريب ، ولكن أشد منه غرابة وأدعى للعجب أن المسلمين فى عهد الخلافة الراشدة وعصر الفتوح الاسلامية الأولى خاضوا بحر مدنية الروم وفارس وهو مائج هائج ، وعبروه ولم يفقدوا شيئا من أخلاقهم ومبادئهم وعاداتهم ، ووصلوا الى الشط الثانى ، ولم تبل ثيابهم ، ولم يزل الخلفاء الراشدون وأمراء الدولة الاسلامية من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم محتفظين بروحهم ، ونفسياتهم وزهدهم وبساطتهم ، فى المعيشة وتخشنهم فى أوج الفتوح الاسلامية .

حكى الطبرى دخول الهرمزان المدينة ، ومواجهته لعمر رضى الله عنه قال : هياؤا الهرمزان فى هيئته ، فألبسوه كسوته من الديباج الذى فيه الذهب ، ووضعوا على رأسه تاجا يدعى الآذين مكللا بالياقوت ، وعليه حليته كما يراه عمر والمسلمون فى هيئته ، ثم خرجوا به على الناس يريدون عمر فى منزله ، فلم يجدوه فسألوا عنه ، فقليل : جلس فى المسجد لوفد قدموا عليه من الكوفة ، وانطلقوا يطلبونه فى المسجد فلم يروه ، فلما انصرفوا مروا بفلمان من اهل المدينة يلعبون ، فقالوا لهم : ما تلددكم تريدون أمير المؤمنين ؟ فانه نائم فى ميمنة المسجد متوسدا برنسه ، وكان عمر قد جلس لوفد اهل الكوفة فى برنس ، فلما فرغ من كلامهم وارتفعوا عنه وأخلوه نزع برنسه ثم توسد فنام . فانطلقوا ومعهم النظارة حتى اذا راوه جلسوا دونه ، وليس فى المسجد نائم ولا يقظان غيره ، والدرة فى يده معلقة ، فقال الهرمزان : أين عمر ؟ فقالوا : هو ذا ، وجعل الوفد يشيرون الى الناس أن أسكتوا عنه ، وأصغى الهرمزان الى الوفد ، فقال : أين حرسه وحجابه عنه ؟ قالوا : ليس له حارس ولا حاجب ولا

كاتب ولا ديوان ! قال : فينبغي له أن يكون نبيا . فقالوا : بل يعمل عمل الأنبياء ، وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة ، فاستوى جالسا ثم نظر الى الهرمزان فقال : « الهرمزان » ؟ قالوا : نعم : فتأمله وتأمل ما عليه وقال أعوذ بالله من النار وأستعين الله ، وقال : الحمد لله الذي أذل هذا وأشياعه ، يا معشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدى نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة ، فقال الوفد : هذا ملك الاهواز ، فكلمه . فقال : لا ، حتى لا يبقى عليه من حليته شيء ، فرمى عنه بكل شيء عليه الا شيئا ليستره ، والبسوه ثوبا صفيقا فكلمه (١) .

ويصف ضرار بن ضمرة على بن أبى طالب فى خلافته بعد وفاة على لمعاوية ، ويقول : « أنه ليستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته ، كان - والله - غزير الدمعة ، طويل الفكرة ، يقلب كفه ويخاطب نفسه ، يعجبه من اللباس ما خشن ، ومن الطعام ما جشِب (٢) ، كان والله كأحدنا يجيبنا اذا سألناه ، ويبتدئنا اذا أتيناها ، ويأتينا اذا دعوانا ، يعظم أهل الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمع القوى فى باطله ولا ييأس الضعيف من عدله ، وأشهد بالله لقد رأيت فى بعض مواقفه ، وقد أرحى الليل سجوفه وغارت نجومه ، وقد مثل فى محرابه ، قابضا على لحيته ، يتململ تملل السليم ، ويبكى بكاء الحزين ، وكأنى أسمعوه وهو يقول : « يا دنيا أبى تعرضت ، أم لى تشوفت ؟ هيهات هيهات !! غرى غرى ، قد بتتك ثلاثا لا رجعة لى فىك . فعمرك قصير ، وعيشك حقير وخطرك كبير . آه ! من قلة الزاد وبعد السفر ووحشة الطريق (٣) » .

(١) تاريخ الطبرى (ج ٤ ص ٣٧) .

(٢) ماجشِب : ما غلظ وخشن .

(٣) صفة الصفوة لابن الجوزى ج ١ .

كان شعار الدولة الإسلامية الأولى الهداية والدعوة الى الله وخدمة الناس ، فكانت الدولة تخسر أموالا عظيمة في سبيل الاخلاق والدين ، وكانت اذا خيرت بين أرواح الرجال ومبالغ من المال اختارت الأرواح وخسرت الارباح ، وتطيب بذلك نفسا وتقر به عينا ، واذا كان عكس ذلك فكسبت الأموال وخسرت الرجال ، حزنت لذلك وحزن المسلمون كحزئهم على ملك زائل وسُلطان راحل ، وقد فضل الخلفاء الراشدون وخامسهم عمر ابن عبد العزيز رحمه الله ان يدخل المجوس والنصارى في الاسلام ويعفوا من الجزية ، فيخسر بيت مال المسلمين مقدارا عظيما من المال ، ويكسب الدين الاسلامي والامة الإسلامية رجالا يتخلصون من النار ، واذا كسب وربح بيت المال على حساب الاسلام حزنوا حزنا شديدا .

حدث الطبرى عن زياد بن الزبيدي ، قال : « جمعنا في مصر ما في أيدينا من السبايا واجتمعت النصارى ، فجعلنا تأتي بالرجل ممن في أيدينا ثم نخيره بين الاسلام وبين النصرانية ، فاذا اختار الاسلام كبرنا تكبيرة هي أشد من تكبيرنا حين نفتح القرية ، قال : ثم نحوزه اليها . واذا اختار النصرانية نخرت النصارى ثم حازوه اليهم ووضعنا عليه الجزية وجزعنا من ذلك جزعا شديدا ، حتى كأنه رجل خرج منا اليهم (١) » .

وهكذا انتشر الاسلام ، وانتشرت الاخلاق الفاضلة في عقود من السنين من أقصى الشرق الى أقصى الغرب ، وتغلغلت الدعوة الإسلامية في أحشاء المجتمع البشرى . لم يتمتع العالم الاسلامي بخلافة عمر بن عبد العزيز الا سنتين وبضعة شهور ، ولكنه بحرصه على الدعوة ومحافظة على شعار الهداية ، وسيرة

(١) تاريخ الطبرى (ج ٤ ص ٢٣٧) .

خلفاء الأنبياء عليهم السلام تمكن من التأثير في القلوب والعقول ،
وقلب تيار المدنية ، واطهار الدين واخلاد الكفر والفسق ،
والقضاء على رسوم الجاهلية ، ما لم تتمكن منه دول اسلامية
طويلة الأعمار لتراوحها بين الهداية والجبابة ، وتفضيلها الجبابة
في أكثر الأحيان على الهداية .

وكانت المدن الاسلامية الكبرى وعواصم الاسلام مركز دعوة
وهداية بحيث اذا دخلها الانسان عرف أنه يمشى في مركز الاسلام
ويتنفس في جوه ، فيرى الحدود قائمة وأحكام الشرع نافذة ،
ولا يجد أحدا يتهاون في أمر من أمور الدين ، ويستخف به او
يجاهر باثم ومعضية ولا يرى بدعة ولا فجورا ، ولا دعاة ولا
خدعة ، ولا يسمع برشوة ولا خيانة ولا ما ينافي روح الاسلام ،
ويسمع الدعوة الى الله والى الدار الآخرة والى الفضيلة والتقوى
واتباع الكتاب والسنة ، والاجتناب من الشرك والبدعة ، والتمسك
بفضائل الدين في كل مكان ، ويرى العمل بذلك في الطرقات
والمجامع ، وبيوت الناس ودواوين الحكومة ، فيتشبع بروح
الدين ويتضلع ايمانا وحماسة ، وفقها في الدين ومعرفة بأحكامه
وشرائعه وحبا لاهله ، فلا يخرج الا وقد استفاد الايمان والعلم
والتصلب في الدين والثقة برجاله وممثليه .

واذا دخلها أجنبي او حديث عهد بالاسلام ، عرف مزايا الحياة
الاسلامية وفضل حكومة الاسلام ، وآثر الإقامة فيها ، وكره أن
يفارقها ، ويعود الى دار الكفر كما يكره أن يقذف في النار .

اما الحرمان فقد كانا في حكومة الاسلام - المؤسسة على مبدأ
الهداية - مدرسة الدين ومهد الحضارة الاسلامية ، تتمثل فيهما
الحياة الاسلامية بكمالها وجمالها ، ويأتى اليهما المسلمون من كل
ناحية من نواحي العالم الاسلامي ، ومن كل فج عميق ، فيشهدون

منافع لهم ويتفقهون في الدين ، وينذرون قومهم اذا رجعوا اليهم ،
ويحتجون في بلادهم بما راوه في الحرمين ، فيكون ذلك حجة
لمحافظة الحجاز على الدين والسنة وحرص حكومتها على تمثيل
الحياة الاسلامية في مركز الاسلام ومنبعه .

ثم اتى على المسلمين حين من الدهر نسوا ان الحكومة في
الاسلام لم تكن الا جائزة الدعوة والجهاد في سبيلها ، ولولا رسالة
محمد صلى الله عليه وسلم ودعوته الى الله ، وما لقي في مكة
والطائف من قريش والقبائل ، ولولا الهجرة والاختفاء في غار
ثور ، والرباعية المكسورة يوم احد ، ولولا ما صنع بحمزة يومئذ
ولولا قتلى بشر معونة ومصلوب الانصار (١) ، لما دانت الدنيا
للعرب ، ولا كانت دمشق ولا بغداد ، ولا كان لبنى مروان ان
يجبوا خراج الروم وفارس ، ولا كان للرشيدي ان يقول لسحابة
مرت به : « امطري حيث شئت فسيأتيني خراجك » .

أسس ملوك المسلمين بعد الخلافة الراشدة دولهم على مبدأ
الجبابة السياسية ، وأهملوا الدعوة الى الله والى دار السلام ،
وعطلوا الحدود وأبطلوا الحسبة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن
المنكر ، وأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات ، ولم تعد مراكز
الاسلام مدرسة الدين ومروءة لمدينته واجتماعه ؛ بل أصبحت
تفرس الشك والنفاق في قلوب الوافدين وتزعزع عقيدتهم وثقتهم
بالدين وأهله ، وأصبح القاصدون من مختلف أنحاء العالم الاسلامي
يكتسبون منها استخفافا بشعائر الاسلام ، ورقة في الدين ، ووهنا
في العمل ، وسوء ظن بممثلي الاسلام ، ورجعوا يحتجون بالاوضاع

(١) هو خبيب بن عدى بن مالك الذى قتله بنو الحارث بن عامر ، وبضعوا
لحمه ، وحملوه على جذعة ، وهو القائل :

ولست أبالي حين أقتل مسلما على اى جنب كان في الله مصرى

الفاسدة في مراكز الاسلام ، وبالفوضى الدينية ، فكانت داهية عظيمة على رجال الاصلاح والدعوة في الاقطار الاسلامية ، وفتنة كبيرة .

ليس العالم الاسلامي اليوم بأشد افتقارا الى شيء ، منه الى حكومة تمثله تمثيلا صحيحا ، وتقوم على أساس الدعوة والهداية ، والنصيحة والخدمة ، فان الاسلام لا يؤثر في عقول الناس ، ولا يشغى المتفحصين حتى تكون له رقعة في الأرض ، تتمثل فيها حياته وتتجلى فيها مدنيته واجتماعه ، وتظهر فيها نتائج دعوته وتعاليمه ، فاذا كان ذلك ولو في رقعة صغيرة كان على الاسلام اقبال عظيم لم يعهد من قرون .

وليس العالم الانساني بأقل افتقارا من العالم الاسلامي لمثل هذه الحكومة التي شعارها الهداية والاصلاح ، لا الجباية والكفاح ، فان الانسانية العلية جريحة لا يسعفها اليوم الا قيام هذه الحكومات التي تؤسس على أساس الفضيلة والدين ، واحترام الانسانية ، وايتار الأرواح على الأرباح ، والأخلاق على الأعلاق ، وكسب الرجال على كسب الأموال ، فاذا تأسست هذه الحكومة - مهما كانت صغيرة ومهما كانت مواردها ضعيفة - كان ذلك حادثا غريبا يستحق كل تنويه واشادة ، وقام كبار السياسيين واصحاب البراع ، وقادة الفكر يشيرون اليها بالبنان ويضربون بها الأمثال ، ويؤلفون عنها مؤلفات ، واصبح الناس ياءون اليها كما ياءى الفرقي الى جزيرة في البحر ، لينعموا في ظل حكومتها ، وينفضوا عنهم غبار الظلم والفتن ، ويتنفسوا من متاعب المدنية المعقدة المزورة ، والحكومات الجابية الجائرة ، ولكانت هذه الحكومة غرة في جبين الدهر ، وشامة بين الحكومات والدول .

ان الانسانية قد جربت حكومات الجباية على اختلاف انواعها وأسمائها - من شخصية وديمقراطية ، ورأسمالية

واشتركية وشيوعية - فوجدتها بنات علات ، لا تختلف في أصلها ومبدئها ، وروحها ونزعتها ، وقلبتها على كل جانب فلم تر منها الا شرا ومرا ، ولم تر اختلاف الأسماء يغنى عن شيء ، واذا تأسست جديدة باسم جديد ، نادى لسان الحقيقة في لفظ أبى العلاء المعرى :

الا انما الأيام أبناء واحد وهذى الليالى كلها أخوات
فلا تطلبن من عند يوم وليلة خلاف الذى مرت به السنوات

واذا ضمت الى هذه الحكومات المعدودة بالمئات حكومة جديدة لا تختلف عن اخواتها الا انها يرأسها مسلم أو يديرها عدد من المسلمين ، لم تكن بدعا ولم تكن شيئا طريفا ينوه به أو يشار اليه بالبنان ، أو تعقد به الآمال ، فان هنالك حكومات تفوق هذه الحكومة عشرات من المرات فى طول مساحتها وضخامة ميزانيتها ، وكثرة انتاجها واصدارها ، وفى جيشها واساطيلها وبوارجها الحربية وعدد الطائرات ، وكثرة المصانع ورقي الصناعة والتجارة واحتفال المدنية والحضارة ، وحسن الادارة وانتشار العلم فى طبقات الشعب وقلة الأمية ، الى غير ذلك مما تمتاز به الحكومات الأوربية .

ان قيام دولة للمسلمين فى بقعة من بقاع الأرض فرصة سعيدة نادرة لا تسنح فى كل حين ، ومثل هذه الفرص - كما يعرف المطلع على السنن الالهية وعلى تاريخ الأديان والدعوات الإصلاحية - قد تسنح بعد قرون ، وتكون من فلتات الدهر ، وفى قصرها كوميض البرق فى ليلة مظلمة ، وتكون امتحانا عظيما لرجالها ، كيف يستخدمون هذه الفرصة لدعوتهم ومبادئهم الدينية على حساب مصالحهم الذاتية ، وراحتهم ولذائهم ، فاذا انتهزوا هذه الفرصة وعرفوا قيمة الوقت ، واحسنوا تمثيل هذه العقيدة والدين الذى ينتسبون اليه وحسن ظن الناس بهم ، وصدقوهم فى ما يقولون

فقد خدموا دينهم وانفسهم خدمة باهرة ، وان كان غير ذلك فاساءوا استعمالها واستغلوها لمصالحهم الشخصية على حساب الدعوة الدينية ، ورجالها المخلصين وجهودهم في سبيل نشر هذه الدعوة ، وقيام هذه الحكومة ، كما فعلت الدولة الأموية والعباسية ودول كثيرة ، فقد ضيعوا الفرصة وخسروا دورهم ، وخسرت معهم الدعوة التي وصلت أسبابها بأسبابهم دورها ، وما يعلم احد متى يعود هذا الدور ، وهل يعود أو لا ؟ فقد شهد التاريخ أمما وجماعات كثيرة ضيعت فرصة حكمها وسلطانها ، ولم تنتفع بها ، وانتهى دورها القصير أو الطويل فوقفت مع المتفرجين المنغزلين وبقيت تنتظر دورها في حلبة الأمم ، وتعض على تفريطها ببنان الحسرة والندم .

هذا والى الحكومات الاسلامية ومن كان على رأسها أن ينتهزوا الفرصة ويحرزوا قصب السبق ، وبلغوا بهمتهم وعنايتهم الى حيث لا يبلغ اليه كبار الصالحين والأتقياء بعبادتهم وزهدهم ، وذلك بما آثرهم الله من حول وطول ، ونفوذ وسلطان ، وفرص لا تتأى لغيرهم ، ولهم أن يصلوا في خدمة هذا الدين واعادة شبابه ، واصلاح المجتمع وتغيير اتجاهه ، من الجاهلية الى الاسلام في يوم واحد - اذا أرادوا بذلك وصحت عزيمتهم وصدقت نيتهم - ما لا يصل اليه المصلحون ، والمؤلفون والعاملون في أعوام وقرون ، وينالوا من رضى الله وثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ما يغبطهم عليه كثير من العباد والمتقين ، وعباد الله الصالحين .

وما أطلق الناس على عمر بن عبد العزيز لقب المجدد الكبير والخليفة الراشد الا بتغييره مجرى الحكومة من الجباية الى الهداية ، والاصلاحات التي قام بها ، وبرجولته وعصاميته في

سبيل مبداه ، ولو وزن ما تنازل عنه من نعيم زائل ومتاع فان ،
وانواع من لباس وطعام ، ودواب وانعام – كان لا بد ان يتركها
يوما من الايام – لو وزن ذلك كله بما اكتسب من نعيم لا ينفد ،
وقرة عين لا تنقطع ، وما يرجو من مرافقة محمد صلى الله عليه
وسلم واصحابه والالتحاق بحزبه ، وما جعل الله له من لسان
صدق في الآخرين ، لرجح ما اكتسب رجحانا واضحا ، وعد من
كبار الاذكياء وعقلاء العالم .

* * *

دعوتان متنافستان

لم تزل في الدنيا منذ وجدت دعوتان متنافستان متصارعتان ، دعوة تدعو الى اتباع النفس وتحكيمها ، والى حرية الانسان المطلقة التي لا تقف عند حد - الا اذا اضطرت الى ذلك - وان كان في غضون هذه الحرية وأثنائها مئات وآلاف من أنواع الرق والعبودية ودعوة تقول : ان الانسان عبد الله ، مكلف ومسئول أمامه ، وتدعو الى اتباع الوحي من الله وشرائع الأنبياء .

الدعوة الأولى هي « الجاهلية » في مصطلح الاسلام الواسع ، والدعوة الثانية هي دعوة الاسلام نفسه ، واقتسمت هاتان الدعوتان أمم العالم وأجياله ، ولم تزل تتداول قيادتهما وتمثيلهما من حين الى حين ، وليس تاريخ الأديان والعقل والأخلاق ، الا حكاية هذا الصراع المستمر ، والنزاع الدائم ، وذلك اكبر صراع واوسع شهده العالم في عمره الطويل .

ومنذ ثلاثة عشر قرنا ونصف ، اختار الله لقيادة الدعوة الثانية - الاسلام - اتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، وكتب لهم الامامة في ذلك الى يوم القيامة .

كذلك لم تزل تمثل الدعوة الجاهلية وترأسها أمم وحضارات جاهلية في عصورها ودوائرها ، حتى قضى ربك أن تتولى زعامتها وتحمل رايتها أمم أوربا النصرانية قبل نحو قرنين ، وانما رشحها لهذا المنصب وجعلها حاملة لرسالة الجاهلية في العالم مجاهدة في سبيلها ، سوء تمثيل النصرانية المحرفة للدين المطلق ، ورهبانيتها وعجزها عن حل القضايا الانسانية والمعضلات البشرية

ثم سوء تمثيل علمائها وكهنتها ، وقسستها للنصرانية نفسها ، وبما حالوا بين أمتهم وبين الرقى والتقدم ، وبما أذاقوا العلماء الأحرار والمكتشفين من أنواع العذاب التي تقشعر لها الجلود ، وتتفطر منها مرارة الإنسان مما حفظه لنا تاريخ الصراع بين الدين والمدنية والدين والعقل ، والدين والعلم في أوربا ، زد الى ذلك كله تهور الثائرين على النظام القديم وطيشهم ، فكان عاقبة ذلك أن أصبحت أمم أوربا وهى المتحفزة للنهوض ، الطامحة الى الرقى تبغض الدين مطلقا ، وتتحرر من كل نظام قديم ، وتعدى كل دعوة دينية خلقية ، وترى فيها حجر عثرة فى سبيلها ، وفى اصحابها عدوا لدودا للرقى الانسانى .

وعلى كل تحولت أمم أوربا جاهلية مادية محضة ، وكان هذا التحول من انعكس الحوادث التي وقعت فى التاريخ والذي قد جر على الانسانية شقاء طويلا وويللا عظيما ، ولكنه كان واقعا لا محالة لأسباب طبيعية عقلية .

وتقدمت أمم أوربا الفتية المتحمسة لغزو العالم وفتحه ، وقد أخذت له أهبتة وأعدت له عدته فكان بحكم الطبيعة أن تصادم ممثلى الدعوة الثانية المضادة لها ، وهم المستولون على أجمل رقع العالم المتمدن المعمور ، وعلى أهم بقاع الأرض سياسيا وجغرافيا ، وأخصبها وأثراها اقتصاديا ، وكان بديها أن يقع أول صراع واكبره بين هاتين الفتتين ، فكان ذلك !

كان ذلك والمسلمون منذ امد بعيد ، قد فقدوا روح الرسالة التي كانوا يحملونها ، والتي قد أصبحوا بقوتها سيلا جارفا جبارا لا تقاومه الحشائش ، ولا تقف فى وجهه الصخور ، وقوة المسلمين وروحهم دائما من الرسالة والدعوة ، فأضحوا لا يحملون رسالة الاسلام الى العالم ، ولا يدعون دعوة دينية تنفخ فيهم الحماسة

والفتوة ، ويأتون لها بخوارق ومعجزات ، وتفتح لهم هذه الرسالة قلوبا وعقولا ، وتسخر لهم ممالك ودولا ، وأصبحوا جيلا من الناس كسائر الأجيال ، يرى ما يحدث في العالم من خير وشر وما يسود فيه من حق وباطل ، هادئا مطمئنا كمتفرج أو كعاجز ليس له من الأمر شيء .

وفقدوا الايمان والحماسة الدينية ، ففقدوا القلوب التي كانوا يلقون بها عدوهم ، وسلاحهم الذي كانوا يقارعون به فيهزمون أضعافهم في العدد والعدد ، وأصبحوا كسائر الناس لا يمتازون بمزيد قوة ولا بزائد يقين ، يألمون كما يألمون ولا يرجون من الله ما كانوا يرجون .

وفقدوا الأخلاق والفضائل التي كانت لهم قوة روحية وسلاحا ماضيا في معترك الحياة ، دانت بها لهم الجبابة ، ولانت بها صخور القلوب ، واستبدلوا بها عيوبها وأدواء خلقية واجتماعية ، أخذوها من الأمم الجاهلية المنحطة التي عاشروها وسرت فيهم أيام ترفهم وانحطاطهم الخلقى والاجتماعى ، فكانت كدابة الأرض تأكل منسأتهم ، وتنخر الدعائم التي قام عليها بناؤهم .

ونضب معين علومهم ، وجمدت قرائحهم وعقولهم ، وحرموا الاجتهاد ، والتفكير ، وقوة الاكتشاف والابداع ، ومنى علماءهم بجمود عقلى وركود علمى ، لا يزيدون في ثروة العلم ، ولا يفتحون للعقل أبوابا ومنافذ جديدة ، ولا ينظرون في علوم الطبيعة والكون بينما كانت أوربا تسخر لمصالحها قوى الطبيعة ، ويكشف علماءها عن أسرار الكون ، ويتخذ عاملوها نفقا في الأرض وسلما في السماء .

أما الأمراء والملوك المسلمون فقد تركوا الجهاد في سبيل الله منذ قرون ، واشتغلوا عنه بحروب بغضاء ومنافسة ، وشهوات ومطامع ، حتى دهم الاسلام الزحف الصليبي فلم يقم له الا صلاح

الدين الأيوبي وبعض الأفراد المتصلين به . ومرت كارثة الأندلس
وكان لم يكن شيء ، وزحف التتار والمغول - ذلك الجراد المنتشر -
فنهكوا قوى المسلمين ، وزادوهم وهنا على وهن .

هذه هي العوامل التي ساعدت الأوربيين في فتحهم وانتصرت
بهم الجاهلية على الاسلام ، فكان اكبر انتصار نالته الجاهلية
على الاسلام منذ زمن طويل ، ولو تكلمت لقلت : اليوم انتصفت
من عدوى ، واخذت ثار الأمم التي فتحها والدول التي محاها ،
والحضارات التي طمسها ومن اليوم ازدهر في بلاده وأخصب
في نجاهه ووهاده ، وأجرى مجراى لا يسد تيارى شيء .

لو قالت لصدقت ، لأن المسلمين - على علائهم - كانوا أمناء
لرسالة الأنبياء ، حملة لمصابيح شرائعهم ، وحرزا للدين في الدنيا
ودرءا للأخلاق والفضيلة على كل حال ، وكانوا أعظم سد في وجه
الجاهلية ، ويتحولون أكبر خطر عليها في كل وقت .

كانت رزية المسلمين في هذه الهزيمة عظيمة وخطبهم فادحا
جدا ، فقد خسروا بلادهم التي كانت تفيض لبنا وعسلا ، وخسروا
جميع دولهم تقريبا ، ومنوا بنوعين من العبودية السياسية والعقلية
وحيث افلتوا من العبودية المادية لم يفلتوا من العبودية العلمية
والخلقية .

ورزئوا في أخلاقهم التي أورثتهم إياها تعاليم الأنبياء ، والمحاسن
التي حافظوا عليها طوال هذه القرون : من صدق وأمانة ، وشجاعة
ووفاء ، وعفة وطهارة ، وكرم وتواضع ، وتقوى الله في السر
والعلانية ، ومراقبة حدوده الى غير ذلك ، مما يمتاز به اتباع
الشرائع السماوية عن اهل الجاهلية ، وتسلمت عليهم بتأثير الأمم
الغريبة العيوب الخلقية ، والمخازى البشرية التي ورثتها أوربا
من روما ويونان الوثنيتين ، ومن قرونها المظلمة ، ومن جاهليتها

**كالنفاق والرياء ، والفقر بالمهود ، اذا دعت الى ذلك مصلحة ،
والجشع المادى والايمان بالقوة وحدها ، والاحترام للمال والثروة
وحدها ، وتقديم المصالح والمنافع على الأخلاق والفضائل .**

وما كانت رزية الانسانية في هذا الانتقال بهينة ، فتزلزلت
مباني الأخلاق والفضيلة في كل صقع وقطر ، وحدثت ثورة على
كل نظام قديم ، وان كان عادلا وحسنا ، وعمت الفوضى في
البيوتات والأسر ، وتغير الولد للوالد وعقه ، وتركت المرأة بعلمها
وئارت عليه ، وانحلت عقد الأرحام ، ولم يعد الصغير يوقر الكبير
ولم يعد الكبير يرحم الصغير ، وتعوضت القلوب من الألفة والمحبة
الجفاء والبغضاء ، وكثر التنافس في الحياة الدنيا وفي الرقى
المادى ، وفي أسباب الجاه والثروة ، وتولدت من ذلك ثروة وآفات
كدرت صفو الحياة وأماتت القلب والروح ، الى غير ذلك من الظواهر
التي تشكو منها كل ديانة وكل حضارة شرقية بثها وحزنها ، ومما
يشارك فيه المسلمون وغيرهم من الشرقيين .

ثم ان هذه الأمم قد أصبحت تتحكم في أموال الناس ونفوسهم
وأرزاقهم ، وأصبحت تملك السلم والحرب ، وأصبح العالم
في حضانتها كولد يتييم أو شاب سفيه لا يملك من أمره شيئا ،
فتارة تسوقه الى ساحة القتال ، وطورا تملى عليه الصلح ، وليس
له في صلح أو حرب يد مرفوعة أو كلمة مسموعة .

ماذا عسى ان يكون اثر هذه الهزيمة والرزية العامة في نفوس
المسلمين وفي نفوس بنى آدم عامة ؟

اما الناس عامة فلكل انسان أن يجيب عنه ، وسيجيئون
عنه ، اما المسلمون وهم أولى بأن يوجه هذا السؤال اليهم لأن
منهم انتقل هذا الملك الواسع والأمر والنهي الى الأوروبيين ، ولأن
دينهم يقتضى أن يكون ظاهرا على كل دين ، وأن يكونوا هم الأسوة

وحدهم للعالم ، فسيقول كل مسلم لم يمت قلبه : ان من الطبيعي أن تنطوى صدور المسلمين على احن وأحناد للجاهلية ، وأن ينظروا الى كل من يمثلها في كل مكان كعدو غاصب ، وغريم منافس وأن طبيعة رسالتهم ودعوتهم في العالم تقتضى بداهة أن تعزل الأمم الجاهلية من قيادة العالم ، والتأثير في عقول الناس وتوجيه افكارهم ، وأن تمنع من تمثيل الجاهلية في العالم ، وأن ينزع منها سلطائها حتى لا تكون في دعوتها فتنة لمفتون ، وحتى لا تنافس الدعوة الى الله دعوة ، ولا ينازع في الدنيا عاملان يتجاذبان النفوس والعقول الى جهتين مختلفتين ، « حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله » .

ويعلم كل ذى بصيرة بل كل ذى بصر أن مجرد سيادة هذه الأمم ، واستعلائها السياسى والمادى دعاية عظيمة لدينها ، وحضارتها ومبادئها ، ومناهج فكرها وأخلاقها ، لا يقاومها منطق ولا استدلال ، ولا حجة ولا برهان ، ولا فلسفة ولا أخلاق ، ولا تنجح ضدها دعوة الأديان ، وانها قد أصبحت بزخارفها مغناطيسا للقلوب ، تجذب اليها كما يجذب الحديد .

هذه هي الحقيقة التى ذكرها موسى عليه الصلاة والسلام فيما حكى القرآن عنه في دعائه الذى دعا به في مصر على عهد فرعون وهى حقيقة في كل عصر ومصر :

« ربنا انك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ، ربنا ليضلوا عن سبيلك ، ربنا اطمس على أموالهم ، واشدد على قلوبهم ، فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » (١) .

فماذا كان المنتظر من المسلمين — وهم حاملوا رسالة الاسلام — كان المنتظر منهم أن يروا في أوربا وأمريكا زعيما للجاهلية ، الذى

(١) الآية ٨٨ من سورة يونس .

تولى كبرها وحمل رايتها في الآفاق . وكان الواجب ان تكون هذه المسألة هي ام المسائل وكبراها في نظرهم ، وان تشغل ذهنهم وتستغرق سعيهم ، وكان الواجب ان يعدوا انفسهم في كل ناحية من نواحي العالم ممثلين للدعوة الاسلام ضد هذه الدعوة الجاهلية ، وان لا يتخذوا موقفا مهما كان **اقتضاء المصالح الوطنية والسياسية والمالية** ، لا يتفق وممثلى الاسلام وحاملى رسالته ، وأن لا يأتوا بشيء تنغذى به الحركة الجاهلية في العالم ، وأن لا يظهر منهم شيء ينم عن ركونهم الى هذا النظام الجاهلى الذى بسطته هذه الأمم في العالم ، وتريد أن تبسطه ويظهر به تعاونهم على الائم والعدوان ، الذى لا عدوان اكبر منه .

ولكن مما يبعث الأسف العميق والعجب الشديد في النفوس « عجا يميم القلب ويشغل الفهم ، ويكثر الأحزان » كما قال على بن أبى طالب رضى الله عنه في خطبة له ، ان المسلمين عامتهم لم يدركوا هذه الحقيقة مع وضوحها وانجلائها ، وذهلوا عن موقفهم الصحيح في العالم ، ونسوا وجهلوا أنهم والأمم الأوربية الجاهلية دعاة لنظامين للحياة متضادين ، ولحضارتين متناقضتين وأنهم واياها ككفتى ميزان ، كلما رجحت واحدة طاشت الأخرى .

وأصبح المسلمون أخيرا لجهلهم للدين وما يقتضى من حب وبغض ، وبتأثير الدعاية ، يرون الى الجاهلية الأوربية كالحليف الوحيد للاسلام ، وأنهم يقرعون بين أممها ودولها أيها أقرب اليهم ، وأنفع لمصالحهم ، وأغراضهم السياسية والمالية ، ويجهلون أنها مهما اختلفت في نظمها السياسية ، وفي ادارتها الداخلية ، أو سياستها الخارجية ، ومهما تعادت وتباغضت فيما بينها ، فإنها أخوات شقيقات من اب واحد وأم واحدة ، وأنها لا تختلف في المبادئ الأولية وفي فلسفتها التى يسميها الاسلام « الجاهلية » وغاب عن عقلاء المسلمين والمتعلمين منهم بل وقادتهم وزعمائهم ،

— فضلا عن العامة — انه ما دامت هذه الأمم تتمتع بالغلبة السياسية ، وما دامت لها سيطرة على العالم فهي المثل الكامل والقذوة المثلى في الأخلاق والسيرة ، والعلم والمدنية ، والفضائل والبرذائل ، وما دامت كلمتها عليا فلا تزدهر للدين دعوة ، ولا تعلو له كلمة ، ولا تسود في العالم الأخلاق الفاضلة ولا تكون لها قيمة ، ففي مصلحة الاسلام وفي مصلحة الإنسانية أن تعزل بأسرها عن قيادة العالم ، ولما كان المسلمون هم المسؤولون وحدهم عن صلاح العالم وفساده ، ووظيفتهم الحسبة على الناس ، وهم القوامون بالقسط ، شهداء الله ، وهم المراقبون لسير العالم ، فلهم أن يجتهدوا في ذلك أكثر من كل شعب وأمة ، بل يجب عليهم أن يكونوا طليعة ، وان يكونوا اماما في الحركة ضد الجاهلية وأممها ، بل يجب أن تبدأ منهم الدعوة واليهم تعود .

ولكن أجل نظرك في العالم الاسلامي كله وانظر في شعوبه وأممه ودوله — ان كانت فيه دول تملك أمرها — وفي جميع طبقات المسلمين ، هل ترى شيئا تستدل به على أن هذه الأمة المنبثة في أرجاء الأرض صاحبة رسالة في العالم وصاحبة دين وعقيدة ، وانها تنكر مما وقع وواقع شيئا ؟ وتحمل في صدرها حفيظة ضد الجاهلية وأهلها ، وتريد أن ترفع للاسلام راية وتجتهد لاعلاء كلمة الله ؟

كلا ! بل ترى أمة هادئة مطمئنة راضية بكل ما يقع في العالم اليوم ، سليمة الصدر ، قريرة العين ، ناعمة البال ، تتعاون مع الجاهلية وأممها وتحالف ، وتقدم لها كل معونة تقدر عليها .

لمثل هذا يذوب القلب من كمد

ان كان في القلب اسلام وايمان !

أجل ان كان في القلب اسلام وايمان لما ارتضى مسلم بهذا

الخزى ، ولكن كل ذلك يرجع الى كون الرجل مسلما ، يحب الله ويغض الله ، ويوالى فى الله ويعادى فى الله ولذلك ذكره القرآن شرطا فى قوله :

« يا ايها الذين آمنوا لا تتخلوا عدوى وعدوكم اولياء تلقون اليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق ، يخرجون الرسول واياكم ان تؤمنوا بالله ربكم ان كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى ، تسرون اليهم بالمودة وانا اعلم بما اخفيتم وما اعلنتم ، ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل . ان يثقوكم يكونوا لكم اعداء ويبسطوا اليكم ايديهم والستتهم بالسوء ، وودوا لو تكفروا » (١) ثم ضرب لذلك مثلا بابراهيم واصحابه :

« قد كانت لكم اسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم : انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله ، كفرنا بكم ، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء ابدا حتى تؤمنوا بالله وحده » (٢) .

يلاحظ القارئ العربى النكتة فى قول ابراهيم واصحابه « كفرنا بكم » وبلاغة الكلمة وسعتها ، فلم يقولوا كفرنا بدينكم كأنهم قد أصبحوا صورة وتمثالا للكفر والجاهلية ، جامعين لمعانيها واشكالها ومظاهرها ، ولأن حياتهم كلها وما يتصل بها من علوم وفلسفة ، وحضارة وثقافة قد سرى فيها روح الكفر والجهل ، وذلك ينطبق على كل أمة جاهلية حرمت هدى الأنبياء وعلومهم ، وبنت حياتها وعلومها ومدنيتها على دلالة الحواس أو على القياس أو التجارب ، فعم الإنكار لجميع هذا وكانهم أعلنوا بهذا اللفظ

(١) الايتان ١ و ٢ من سورة الممتحنة .

(٢) الآية ٣ من سورة الممتحنة .

انهم ثائرون على هذا النظام الجاهلى برمته وحذايره ، جاحدون به كافرون بأصحابه ، لا يؤمنون لهم بفضل ولا يخضعون لهم بشيء !

ثم لينظر القارىء ويعتبر كيف ان المسلمين وهم اتباع دين واصحاب يقين ، قد آمنوا بزعماء الجاهلية وأئمة الكفر ولو لم يؤمنوا بدينهم ، ولكنهم آمنوا بهم بأوسع معانى الكلمة وقد اشترط الله للايمان به الكفر بالطاغوت وقدم عليه وقال : « فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى » .

أما اذا أصبح المسلمون لا يعنيه امر الدين والأخلاق ، ولا يهمهم مصير الانسانية ومستقبل العالم ، ولا تهمهم الا المصالح السياسية والفوائد المادية الحاضرة التى تعود على بلادهم أو شعبهم ، وبالأصح على اشخاصهم ، فحبلهم على غاربهم ، وأمرهم بيدهم ، ولكن ليعلموا أخيراً أن سفينة الجاهلية التى اختاروها لسفرهم قد أحيط بها ، وأن الواحها قد تآكلت ونخرت منذ زمن ، وأن ربابيتها قد اختلفوا فيما بينهم فى تسييرها وقيادتها ، ويعلموا أن هذه السفينة اذا غرقت فانها تفرق ركابها ، وكل من وصلوا أسبابهم بأسبابها ، ولا عاصم من أمر الله الا من رحم . وقد قال :

« ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار ، وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون » (١) .

* * *

(١) الآية ١١٢ من سورة هود .

مصرع الجاهلية

من الاساطير التي سمعنا في الصغر ، وبقيت في غصون الذاكرة وبعض ثناياها ، أن رجلا اعتدى عليه عفريت من الجن بمثل ما كان يعتدى به الجن على البشر ، فبرز الرجل بكل ما أوتى من حول وطول ، وبكل ما قدر عليه من سلاح وشكة ليقتله .

هجم الرجل على العفريت بكل سلاح ماض ، وسيف باتر ، وسهم مصيب ، ونثر كنائته ، ولم يدع في القوس منزعا ، ولكنه لم ينكأ عدوه ولم يصب منه مقتلا ، وما زال الرجل يعيد الكرة بعد الكرة ، ويجرب سلاحا بعد سلاح ، والعفريت ساخر منه غير محتفل به كأنه من نفسه على أمان ، ومن سهام الرجل وهجماتاته في حصن حصين .

حار الرجل في أمره وأعياء أمر العفريت ، وكاد يقطع من قتله الرجاء اذ أخبره أحد العقلاء أن روح هذا العفريت في حوصلة ببغاء ، وهذه البغاء في قفص من حديد ، وهذا القفص معلق في غصن شجرة ، وهذه الشجرة في غابة كثيفة يسكنها سباع ضارية ، وحيات فتاكة ، وعقارب سامة ، ودونها خرط القتاد وحولها شم الجبال .

وما زال الرجل يطلع جبلا بعد جبل ، ويقطع واديا بعد واد ، ويقتل وحشيا بعد وحشى ، حتى خلص الى هذا القفص ، وخنق هذه البغاء ولم يكد يقتلها حتى حدثت رجة عظيمة دارت بها الارض القضاء ، واطلمت بها آفاق السماء ، وصاح العفريت صيحته الاخيرة ، وكان جثة هامدة لا حراك بها ، وهكذا قتل الرجل عدوه بعد ما لقي منه عرق القرية .

لعلك سمعت هذه الأسطورة من عجوز في بيت تحكيها لأحفادها
أو أسباطها فمررت بها مستهزئاً وقلت :

حديث خرافة يا أم عمرو .

نعم انها لحديث خرافة ، واسطورة من اساطير الاولين ،
ولكنها تفيدنا بأن كل حي له مقتل ووريد ، ولا يؤثر فيه عدو ،
حتى يصيبه في مقتله ويقطع منه الوريد ، وأن دون ذلك المقتل
وحول هذا الوريد حواجز وحصونا .

قد تسلط على الامة الاسلامية عفريت من الحياة الجاهلية ،
واعتدى عليها بصنوف من الخيال ، وضروب من الأذى والوبال ،
ظهرت في كثير من أخلاقها وأفعالها ، كاستخفاف بأحكام الشرع ،
وتجرؤ على المعاصي ، ووقوع في محارم الله ، واستعباد لعباد الله ،
وامعان في الشهوات ، واسراف في سبيل المتع واللذات ، وتهافت
على الخسائس والرزائل ، وفرار عن مكارم الأخلاق والفضائل ،
« وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا ، وان يروا سبيل الفى
يتخذوه سبيلا » (١) .

والناس طبقات : عامة ، وأوساط ، وعظماء .

فأما العامة فمساكين تدور حولهم ربح الحياة بسرعة ،
لا يرفعون فيها الى الدين والسعادة الآخروية والاستعداد للموت
راساً ، وانما همهم ان يؤدوا ضرائبهم ، ويجمعوا لايام فراغهم
ويكسبوا قوت يومهم ، ويكسوا عيالهم ، فهم يكدحون في الحياة
كدح الحمير والثيران ، لا يتعبون الا للراحة الموهومة ، ولا يستريحون
الا للتعب الواقع ، فهم من البيت الى الدكان ، ومن الفراش الى

(١) الآية ١٤٦ من سورة الاعراف .

المصنع أو السوق أو الإدارة ، ومن نصب الى نصب ، ومن هم الى هم ، لا تنتهى همومهم ولا تنقضى متاعبهم ، حتى اذا جاءتهم الساعة بغتة ، قالوا : يا حسرتنا على ما فرطنا فيها .

وأما الأوساط فهم أسوأ منهم حالا وأكثر منهم بالا ، عذبهم الله بالحرص والجشع ، ينظرون دائما الى من فوقهم ولا ينظرون أبدا الى من دونهم ، فهم فى هم متواصل ، وأحزان متسلسلة ، وشقاء مستمر ، وتذمر جار ، وشكوى قائمة ، وأنين باق ، يجرون فى رهان لا تنتهى ، ويسابقون جيادا لا تكل ولا تسبق ، ولا يزال قصب السبق بعيدا ، كلما انتهوا الى غاية راوا غاية أخرى ، فجروا وراءها وهى تبتعد عنهم ، كما يبتعد الأفق من الطفل الذى يحاول مسكه ، وشعاع الشمس الذى يجتهد لقبضه ، وهكذا يتفلت منهم « المثل الأعلى » فى الفناء والثروة ، والرخاء والجاه ، فيموت الواحد منهم كئيبا منكسرا ، لم يستعد ليوم الجد ولم يأخذ لنفسه عدتها ويأتية الموت فيقول : (رب لولا آخرتنى الى اجل قريب ، فاصدق وأكن من الصالحين) (١) .

وأما العظماء - من الملوك وأبناء الملوك والأمراء - فانهم يريدون أن يلتهموا الدنيا طولا وعرضا ، وينتهبوا المسرات جريا وركضا ، لا يشفى عليهم ولا يروى غليلهم ، وهم من دقائق الراحة الى دقائق ، ومن بدائع الى بدائع ، ومن ابتكار الى ابتكار ، ومن لذيذ فى الطعام والشراب الى الذ ، ومن حديث من مستحدثات المراكب والقصور والأزياء الى أحدث ، لا تكفيهم فى ذلك موارد قطر بأسره ومنابع ثروة أمة بطولها ، حتى يلجأوا الى استقراض وتجارات وضرائب جديدة وأتاوات ، ولا يبالون فى سبيل ذلك أن يرهنوا بأيدي عدوهم رداء الزهراء ، أو كساء أبى ذر ، أو شملة

(١) الآية ١٠ من سورة المنافقون .

أويس ، أو مصحف عثمان ، أو صمصامة عمرو بن معدى كرب ،
أو رمح الزبير ، أو بردة كعب بن زهير ، ويهيئوا صبوحة أو
غبوقا .

وقد هجم على عفريت الجاهلية جيش من المصلحين فصاحوا
به من كل جانب ، ورموه عن قوس واحدة ، ولكن لم ينكأوا عدوهم
ولم يصيبوا منه مقتلا .

لقى الوعاظ والأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر دروسا
في الأخلاق ، وأحاديث في الترغيب والترهيب ، طمعوا الناس في
الجنة ، وحذروهم من النار ، بشروهم بالوعد ، وخوفوهم من
الوعيد ، فسمع الناس كل ذلك في هدوء ولم يحرك منهم ساكنا
ولم يغير منهم خلقا .

الف المؤلفون كتبوا فيها بكل رقيق مرقق ، أوردوا
فيها حكايات زهد العمرين ، وتكشف على بن أبي طالب ، ومواعظ
الحسن البصري ، وكلمات ذي النون المصري ، ورقائق الفضيل
ابن عياض ، وزهديات أبي العتاهية ، وفصاحة الوعاظ ابن
الجوزي ، وتحليل الامام الغزالي .

قوارع تبرى العظم من كلم مض .

فقام الأغنياء والأمراء وأبناء الملوك فاقتنوا هذه الكتب ،
وزينوا بها مكاتبهم ، وتحدثوا عنها الى ندمائهم وزائريهم في لباقة
ورشاقة ، ولكن لم تنفذ سهامها من العيون الى القلوب ، ولم تجاوز
أحاديثها تراقيهم .

قام الخطباء البارعون فالفوا خطبا أسمعت الصم واستنزلت
العصم ، فسمعها هؤلاء وأثنوا على براعتهم وفصاحتهم ، ومضوا

لسبيلهم لم يبكوا على زلة ولم يقلعوا عن سيئة ، ولم يحدثوا لله عهدا .

لقد كان - والله - أقل من هذا يهز القلوب في الجوانح ، ويستفرغ الدموع من العيون ، ويرجف القصور ، ويقلب عروش الملوك ، ويجعل من أبناء السلاطين والأمراء مثل ابن آدم وشقيق البلخي ، يسمع أحدهم وهو خارج من قصر أو رائج الى لهو قارئاً يقرأ : « **الم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق** » (١) (الآية) فيقول : والله لقد آن ، والله لقد آن ، ويرمى آلات اللهو ، ويخرج من أبهة الملوك وحشمة السلاطين الى تبذل الفقراء وتقشف الزهاد .

فهل فقدت الالفاظ على تعاقب الايام معانيها ، أم اعتلت الاذواق ، أم استعجمت اللغات ، أم ماذا ؟

ان شيئاً من ذلك لم يقع ، ولكن نفسية الانسان تغيرت تغيراً عظيماً . كان امر الدين في الزمان الماضي - برغم جميع ادوائه وعيوبه الخلقية والاجتماعية - جداً غير هزل ، وكان امر الدين يعني كل واحد ويهمه كما تهتم الحقائق والأمور الواقعة ، وكان في بعض الأحيان حجب من الترف والطبع والرسم وسوء المعرفة وقلة العلم ، فاذا ارتفعت هذه الحجب وتطرقت دعوة الدين الى القلوب لم يحل دون التوبة واصلاح الحال شيء .

أما الآن فقد أصبح الدين موضوعاً تاريخياً أو حديثاً علمياً بحثاً ، وأصبح الحديث عنه في المجتمع العصري كالحديث عن كوكب المريخ وعجائبه وعن القطب الشمالي وأخباره ، لا يعود على المتحدث والمستمعين بضرر أو نفع ، ولا يطالبهم بعمل أو ترك ولا يمسه في صميم مسائلهم ، ولا يعني الانسان ولا يهمه في حياته الا بمقدار ما يتظرف بمعرفته ودراسته في بعض المجالس ،

(١) الآية ١٦ من سورة الحديد .

أو ما يحدث به أهله عند الحاجة ، أو ما يجلب به نفعا ويدفع به ضرا في مجتمع لا يزال يدين بالدين أو يحترمه ، فليس له الا قيمته المادية المؤقتة .

وأصبحت الحياة وتكاليفها جد الجد ولب اللباب ، وأصبحت مسائلهم هم الشيخ ودرس الصبي وشغل الشاب ، وأصبح الجهاد في سبيلها والنجاح في ميدانها مقياس الفطنة والذكاء ومعيار الظرافة ، واللباقة ، ورمز المروءة والشهامة .

وهنا يقف الداعي الديني حائرا في أمره كيف يواجه هذه العقلية الهامدة والنفسية الباردة في سبيل الدين ، انه واجه العقول الثائرة على الدين فأخضعها ببراهينه ، ووجد شكوكا وريبا تمكنت من النفوس ، فسلبها بحكمته وملأ القلب ايمانا وطمأنينة ، ولكن ههنا يجد نفسه في موقف غريب لم يعهده ، فلا انكار ولا جحود ، ولا اباء ولا استكبار ، ولا عناد ولا اعتراض ، ولا دليل ولا فلسفة ، ولكن حياد تام في مسألة الدين ، واستغناء عن كل ما يتصل بالآخرة ، واخلاق الى الأرض ورضى بالحياة الدنيا واطمئنان بها .

هنا يقف الداعي حائرا في أمره كيف يواجه هذه النفسية ومن أي باب يدخلها ، انه يجد حولها غشاء من حب الدنيا والمال فلا سبيل اليها ولا تفوذ فيها الا بطريق الدنيا والمال ، وأن سبيل الدين غير سبيل المال ، وأن طريق الغيب غير طريق الحس والشهود ، فماذا يصنع ومن أين يبدأ ؟

ان ألقى على القوم نصائحه ووجه اليهم خطابه وحكمته ، ونثر كنائنه في الدين وأجلب عليهم بخيل العلم والبراهين ، ذهب كل ذلك فيهم سدى ، وأجابه لسان الحال قائلا : « قلوبنا في اكنة

مما تدعوننا اليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ،
فاعمل اننا عاملون » (١) .

قرانا في حكايات « الف ليلة وليلة » ان سندباد البحري وجد
بيضة عنقاء فظنها لكبرها وضخامتها وملاستها قصرا من الرخام ،
فدار حولها لعله يجد بابا يدخل منه في داخل القصر ، ودار مرارا
عديدة ولكنه لم يجد بابا ، وعرف بعد ذلك انها بيضة عنقاء ،
لا قصرا من القصور .

كذلك يدور الداعى حول هذه النفسية المستديرة التي
استهوتها الدنيا وغشى عليها حب المال أو الجاه ، فلا يجد فيها
منفذا ينفذ منه الى النفسية وينزل في أعماقها ، فيقطع منها الرجاء
وينقلب منها خاسئا وهو حسير .

اذن روح هذا العفريت الجاهلى ، هو الاخلاص الى الأرض ،
الرضى بالحياة الدنيا والاطمئنان بها ، وعبادة المال والمادة .

هذا مقتل هذا العفريت وهذا أبهره ووريده .

وانما ضاعت فصاحة الفصحاء ، وخطابة الخطباء ، وبلاغة
المؤلفين وأصحاب اليراع واخلاص المخلصين وحكمة الحكماء ،
لأنهم لم يضربوا على الوتر الحساس ولم يصيبوا العدو في مقتله .

بلغت المادية أوجها في عهد الاستيلاء الأوربي ، وأصبحت
فلسفة وفنا وحياة ودنيا ، وليس من مظهر من مظاهر حياتها
ولا مركز من مراكز نشاطها اليوم الا والفضل فيه يرجع الى
أوروبا وسيطرته السياسية والاقتصادية مباشرة أو بواسطة ،
والى غزوها التجارى العالمى .

(٢) الآية ٥ سورة فصلت .

تافس تجار الغرب بدافع من حب الفنى والثروة ، واحتكار
الاموال فى الصناعة والانتاج ، وغزوا ببضائعهم الشرق وامتصوا
بها دمائه ، ولم يقض ذلك لبانتهم لان نطاق الضرورة ضيق ،
والجشع ما له نطاق ، فنافسوا فى انتاج دقائق المدنية وفضول
الصنائع وكماليات الحياة وصبوها على الشرق صبا ، واستهلكوا
فى ترويجها كل ذكاء وادب وفلسفة وسياسة ، واستغلوا سذاجة
الشرق وحبه للدعاية والفخر ، فما لبثت هذه الدقائق والكماليات
ان دخلت فى اصول المعاش ولوازم الحياة فى الشرق ، وأصبح
الذى لا يتحلى بها لا يعد من الاحياء ولا يعامل فى المجتمع معاملة
سواء ، واخذت بتلابيب الشرقى واذهلته عن الدين والآخرة وعن
كل شئ غيرها فى الدنيا ، واهاجت عليه هموما لا أرجاء لها ،
وبعثت فيه شرها للمال لا نهاية له ، واصبحت عليه الحياة جحيما
لا يسمع فيها الا : هل من مزيد .

وما يكاد الشرقى يصل الى هذه المنتجات وشروط الحياة
الا على جسر من المتاعب والمصائب ، وعلى طريق من شوك وقتاد ،
ولا يكاد يتحلى بها الا وتصبح هذه المستحدثات آثارا عتيقة وأطمارا
بالية ، ويهجم عليه الغرب بطراز حديث من المنتجات والمصنوعات
فينكص على عقبه ويتزود لاقتنائها بالمال اللازم - بوجه مشروع
او غير مشروع - ولا يكاد يطلع بها على مجتمعه الا ويرحل
المنسوخ ويحل الناسخ ، وهكذا لا يزال من حياته فى جهاد مضم
شاق ومع المصائب الغربية والتصدير الغربى فى رهان دائم ،
يسبقه فليحقه ويلحقه فيسبقه ، ولا يزال من عيشه فى مضض
وغصص يتجرعه ولا يكاد يسيغه ، ويأتيه الموت من كل مكان
وما هو بميت .

افسدت المدنية الغربية والتجارة الغربية طبائع أهل الشرق
وأذواقهم ، على اختلاف أجناسهم وأوطانهم ، الانت منهم القناة

وأطفات فيهم جمره الحياة ، أذهبت منهم التعمدد العربى والتجلد العجمى ، وأحدثت فيهم التخث والتأث الأوربى ، وأصبحت الفروسية العربية ، والنخوة التركية ، والفتوة الفارسية ، والبطولة الهندية ، والغيرة الأفغانية حديثا من أحاديث التاريخ ، وأصبحت الحياة فى حواضر الشرق ، بل وفى بواديه نسخة قاصرة ممسوخة من الحياة الغربية المصطنعة ، لها ضراؤها ، وليست لها سراؤها ، ولها الغرم دون الغنم .

أصبح الناس فى كل البلاد فى تيار الحضارة الغربية يسيل بهم سيلها الجارف ولا يملكون من أمرهم شيئا ، وأصبح الوالد لا يملك ولده ، والعاقل لا يملك أهل بيته ، بل وأصبح الإنسان لا يملك نفسه أمام الهوى ، وانتقاد المجتمع اللاذع ، ووخر الضمير ، وغاص الناس فى بحر المديسة الى آذانهم ، فترى الصعاليك من العجم يغدون فى حلة ، ويروحون فى أخرى ، وترى الحفاة العراة العالة من العرب رعاء الشاء يتناولون فى البنيان ، ويتفاخرون باقتناء السيارات الأمريكية من أحدث الطراز ، وأفخر الأنواع ، حتى يخاف أن تنقرض الخيل العتاق من أرض الجزيرة التى ملأت التاريخ والأدب بحديثها وأخبارها .

شحت البضائع الغربية أسواق الشرق الإسلامى ، وانبتت شرايين التجارة الغربية وعروقها - وهى طلائع السيادة الغربية ، وسيطرتها السياسية وسهامها التى لا تطيش - فى جوف أقدس البلاد الإسلامية وأحشائها ، وجاست خلال الديار ، وأصبح أهلها عالة على البضائع الأجنبية ، حتى عادوا لا يتصورون الحياة والمعيشة بغيرها ، ولا يقضون حقوق الأعياد والأفراح إلا بها ، وامتنعت هذه البضائع أموالهم بل دماءهم كالأسفنج ، يتشربها فى بلادهم ويصبها فى بلاده ، وهكذا أصبح ما يكسبه المسلم بعرق

جبينه وكد يمينه ، وبرزية في أخلاقه ، وعلى حساب دينه ينتقل الى البلاد الأجنبية .

التجأت الحكومات الاسلامية لتحقيق مشاريعها العمرانية كما تقول ، أو لقضاء مآرب رجالها كما يقول الناس ، الى الاستدانة من الدول الأجنبية ، فخفت لذلك ورحبت به ورصدت لها بعض المال بشروط تجارية وامتيازات سياسية ، واقبلت البلاد الاسلامية تحلب ضروعها وتستخرج الذهب الوهاج ، وماء حياة الصناعة والتجارة (البترول) من بطونها ، ويتهافت الفقراء الذين أجهدتهم الضرائب وتكاليف الحياة على أجورها وخدمتها تهافت الفراش على الضوء ، والجياع على المائدة ، وهكذا تصبح بلاد الاسلام بين أخطار من الالحاد والاحتلال الأجنبي .

ثم هنالك « الطابور الخامس » وهو ذلك الأدب المسلول المسموم الذي ولدته الثورة الفرنسية ، وأرضعته الفوضى الخلقية والاباحة في أوربا ، وغذته الشيوعية ، ذلك الأدب الخليع المستهتر الذي ينبت في القلوب النفاق ويسقى غرس الشهوات ، ويقوض دعائم العمران ، ويفسد نظام الأسرة ، ويسخر من كل فضيلة ، ويستهن بكل أدب ونظام ، ويزين للقارئ مذهب اللذة والانتفاع ، وانتهاز الفرص ، يلخص التاريخ ويوجز الفلسفة والعلم في حب المال والميل الجنسي ، ويصور العالم كله ، كأنه ليس الا ظهور هاتين العاطفتين ، وليس وراء ذلك حقيقة علمية ، ومبدأ سام أو غرض شريف .

وقد انتشر هذا الطابور في أنحاء العالم عن طريق الأدب والروايات والمجلات « والراديو » و « السينما » وتأثر به الحاضر والباد ، وتحدثت به العواقي في خدورها ، وصار ينخر الحضارة الدينية والأدب الاسلامي حتى تسرب العطب اليوم الى لبابه .

وهكذا أصبح العالم كله شعوبا وحكومات وأفراداً تحت سلطان المادية والقوة والجاه والشهوات ، قد شغلت منه كل موضع ومنفذ ، وملكت عليه جميع مشاعره ، واستهلكت في سبيلها جميع مواهبه وقواه وتفكيره وذكاؤه ، وخلقت في الإنسان نفسية لا تؤمن إلا بالمحسوس ، ولا تفكر إلا في اللذة والهناء والسعادة الدنيوية ، ولا تهتم إلا بهذه الحياة ومطالبها الكاذبة التي ما أنزل الله بها من سلطان ، والتي انما فرضتها على الإنسان الحياة المزورة ، والمجتمع الفاسد ، والتجارة الجشعة .

كيف يحل في هذه النفس المادية الدين الذي أساسه الإيمان بالغيب ، وإيثار الآخرة على العاجلة ، الذي يقول : « وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون (١) » والذي يقول : « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا ، فإن الجحيم هي المأوى ، وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى ، فإن الجنة هي المأوى (٢) » .

والذي يقول نبيه صلى الله عليه وسلم : « اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة » ويقول : « حفت الجنة بالمكاره » .

اذن فالمادية في هذا العصر هي علة العلل وعدو الدين الألد ، ومنافسه الأكبر ، وإن الغرب هو زعيمها الذي تولى كبرها ، ووكرها الذي تطير منه وتأوى إليه ، وفيه تبيض وتفرخ .

فأين ذلك البطل الذي يمثل قصة الآدمي مع الجنى على مسرح التاريخ والواقع ؟

وأيّن تلك الأمة التي تعارض هذا التيار الجارف وتأبى أن

(١) الآية ٦٤ من سورة العنكبوت .

(٢) الآية ٤١ من سورة النازعات .

تفقد شخصيتها ، ومقومات حياتها ، وتغلب على امرها ، فتحول
هذا التيار وتقلبه رأسا على عقب ، أو تقف فيه كجبل راس ،
أو صخرة صماء ، فيحول التيار مجراه ، ويتخذ طريقا آخر .

ان البطل الذى يمثل قصة الأدمى مع الجنى ويفتك به ، هو
رجل الساعة ، وبطل الأبطال وفتى الفتیان .

وان الأمة التى تعارض هذا التيار وتغير مجراه هى امام الأمم
المبعوثة الى العالم ، فاين ذلك البطل ؟ واين تلك الأمة ؟؟ هل
تجيب الأمة الاسلامية وهل يجيب العالم العربى على هذا
السؤال ؟! .

* * *

أزمة إيمان وأخلاق

عن أى شيء اتحدث ؟ ان الأحاديث كثيرة ، والشجون كثيرة ،
وإذا كثرت الأحاديث والمعاني تحير الانسان .

ولكن سأحدثكم عن شيء أومن به وأعتقده ، ولن أحاول أن
أشبع رغبتكم أو أن أرضى أسماعكم ، بل حسبى أن أرضى نفسى
وضميرى وإيمانى ، فإذا أرضيت ضميرى أكون قد أرضيتكم .

لن أحدثكم حديثاً علمياً ولا تاريخياً ، فقد اتخمتنا بهذه الأحاديث
وفيككم من يملؤكم علوماً ومعاني وخطابات .

تسمعون الناس يتحدثون عن الأزمات والمشكلات ، - وهذا
العصر هو عصر الأزمات والمشكلات - يتحدثون عن أزمات
اقتصادية ، وأزمات سياسية ، ويتحدثون عن أزمات الحكم وأزمات
الاجتماع ، ولكنى أعتقد أن هناك أزمة واحدة لا ثانية لها هى
أزمة الإيمان ، وأزمة الأخلاق ، فسيحوا فى الأرض وشاهدوا الأمم
والشعوب ، فانكم سترون أن هذه الانسانية - بمختلف الشعوب
والأقطار فى أنحاء العالم كله - تعاني أزمة واحدة هى : « أزمة
الإيمان والأخلاق » هى كارثة الكوارث ، وهى مصيبة المصائب ،
وكل مشكلة تحدث للناس عنها ، واشتكوا منها ترجع الى هذه
الأزمة ، والشئ الوحيد الذى فقد ، وبفقدته وقعنا فى هذه المصيبة
العالمية هو الإيمان ، والشئ الوحيد الذى اعتل ، وباعتلاله أصبحنا
نواجه هذه المشكلات كلها فى نطاق الأفراد والمجتمعات والحكومات

(١) محاضرة القيت فى مركز جمعية انقاذ فلسطين ببغداد فى يولييه سنة

. ١٩٥٦

والأوضاع العالمية هو الأخلاق ، ان الناس أشباه ولم يزالوا ،
واننا بشر والذين يحكموننا بشر ، ولكن الذى يسيطر على العالم ،
هو هذه الأزمة الإيمانية الأخلاقية ، ان كثيرا من الناس يعتقدون
ان الشأن فى الحكومات والأحزاب ، فاذا ذهب وزارة وجاءت
أخرى ، واذا ذهب حزب وجاء آخر ، فقد انحلت الأزمة وانقشعت
المشكلة ، ان هذا حكم خاطئ ومستعجل ، ومبنى على قصر
النظر ، ليست المسألة مسألة أحزاب أو حكومات ، أو شيء من
التعديلات ، ان المسألة مسألة العقلية والاعتقاد ، والنفوس والقلوب
فلا فائدة فى هذه التغيرات ، وان تبدل حزب بآخر أو حكومة
بأخرى ، لا يقدم ولا يؤخر ، ان الأفراد كلهم يلتقون على الخضوع
للمادة والاستئثار وخدمة النفس ، وهذه النفس قد تقصر فتصبح
نفسا فردية ، وقد تتسع فتصبح نفسا حزبية أو جماعية ، ان
هذه العقلية هى التى تسيطر على العالم كله ، وكل ما نعانى من
فساد الأوضاع ، مرده الى فساد هذه النفوس ، وهيمنة هذه
العقلية الخاضعة للمادة ، الخادمة للمصلحة المستأثرة الانانية .

هذا هو الداء أيها الأخوان ، فلا تخدعوا أنفسكم ، وكلما
جردتم النظر ، ونزلتم الى أعماق الحقائق ، فانكم ستجدون ان
أصل البلاء هو شيء واحد (هو عبادة النفس) فاذا لم تتغير هذه
النفوس التى تعبد المادة ، فلن تتغير هذه الأوضاع أبدا .

ان هذا التنافس الذى تحدث به الصحف ، والذى قد يؤدى
الى حروب طاحنة - تستمر سنين طوالا تطحن الأمم - هو
تنافس فى الأغراض فقط ، لا تنافس بين الخير والشر ، وان هذا
الاصطراع القائم بين الأمم الأوروبية ، ليس معناه أن أمة منها
تريد أن تسيطر على العالم لتقضى على هذه الأوضاع الفاسدة ،
ولتخدم الإنسانية ، وتنفذ قوانين الله ، وتحارب الفساد ،
وتساوى بين الناس ، وتقيم القسط والعدل ، وتأمّر بالمعروف

وتنهى عن المنكر ، وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة كما قال الله تعالى :
« الذين ان مكناهم فى الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا
بالمعروف ، ونهوا عن المنكر (١) » .

لا يا ايها الاخوان ، انما هو تنافس على القيادة ، كل امة تريد
ان تمتلك الحكم لتنفيذ شهواتها ، انما النزاع فيمن يكون صاحب
الأمر والنهى ، وتكون له قوة ارضاء الشهوات ، وخدمة المصالح
الذاتية الحزبية .

فبريطانيا وحليفاتها - مثلاً - لم تكن تنازع المعسكر الشيوعى
لتقيم القسط والحق ، وكذلك لم يكن المعسكر الشيوعى فى وقت
من الاوقات لينازع الحلفاء الأوربيين فى سبيل اقامة العدل ، لانه
لم يكن حريصا على اقامة الدين والفضيلة ، انما يصارع ويحارب
ليكون هو المعسكر الوحيد فى العالم الذى يهيمن على وسائل
وامكانيات البشرية ، وليحتكر التجارة العالمية ، ليس لمصلحة
البشرية ، بل ليكون الذين يؤمنون بمبادئه وينضمون اليه يسعدون
على حساب الامم والشعوب التى يسيطر عليها .

ان مرد هذه المصارعات كلها هو شهوة النفس وعبادتها ،
وما لم تتغير هذه النفسية الشريرة الفاسدة المتعفنة فلا مطمع فى
صلاح العالم أو سعادته ورفاهه .

المهم أو الأهم - ايها الاخوة - ان يتغير الانسان ، ان كل شىء
فى هذا العالم خاضع للانسان ، والانسان خاضع لنفسه وضميره
وعقيدته ، فاذا كانت هذه سالحة كان الانسان سالحا ، واذا
صلح الانسان صلح العالم « الا ان فى الجسد مضغة اذا صلحت
صلح الجسد كله واذا فسدت فسد الجسد كله الا وهى القلب (٢) »

(١) الآية ٤١ من سورة الحج .

(٢) حديث صحيح .

لقد أصبح الناس مؤمنين - بحكم ما يكتبه ويقولونه أناس لم يتعمقوا في العلم - بأن صلاح العالم هو في وجود حكومة على أساس كذا وكذا ، أو في تولى الرجل الفلاني ، أو الحزب الفلاني الحكم ، وما دروا أن المجتمع فاسد لفساد الضمائر والقلوب ، وما لم تصلح فلا يؤمل الصلاح ، هذا أيها الإخوان قول مجرب خبير لا أقول انسان منطو على نفسه ، قول رجل تهياً له - بحمد الله - من الدراسة العميقة الشيء الكثير .

قد يدخل الرجل الى غرفة مظلمة ، فلا يستطيع أن يجد طلبه اذا لم يفتح الزر الكهربائي ، ولكن الرجل الخبير بمجرد دخوله الغرفة يعرف موضع الزر فيفتحه ، فيسرى النور في التيار ، ويضيء جنبات الغرفة ، ويقضى الرجل حاجته ، وهذا هو شأن الأنبياء عليهم السلام ومن سار على أثرهم ، هذا هو الزر ، هو « الايمان » ، اذا فتح انطلقت منه موجة النور لتضيء العالم كله .

انى ارى رجالا في البلاد العربية والاسلامية وغيرها يبدون كبارا في العقل والتفكير والتجربة ، ولكنى استغرب أن « تفكيرهم قاصر غير ناضج » .

يتكلمون عن المشكلات حديث رجل لم يتعمق ولم يرسخ ، يتحدثون عن مشكلات السياسة والاجتماع ، ويعتقدون أنه اذا جاء الحزب الفلاني ذهبت المشكلة ، فاذا جاء الحزب واجهنا نفس المشكلة ، بل ما هو اكبر منها وكثيرا ما نواجه مشكلات جديدة أخرى ، ثم نجرب حزبا آخر ، فاذا هو شر من الأول ، وصدق الشاعر اذ قال :

الا انما الأيام أبناء واحد

وهذى الليالى كلها أخوات

فلا تطلبين من عند يوم وليلة

خلاف الذى مرت به السنوات

الى متى تجرى هذه التجارب على الانسان المسكين ؟ والى
متى نفحص ونشرح ثم نرجع من غير طائل ؟ ان الانبياء يمنحونا
العلم اليقيني ، ويعطونا العلاج الشافى .

ان المسألة مسألة النفوس ، وما دمنا معرضين عن هذه
الحقيقة ، فسوف تبقى نعانى مشكلة بعد مشكلة .

ان من المصائب هذه المدنية الاعراض عن الافراد ، فقد اثرت
العلوم العمرانية فى النفوس ، حتى أصبحت تعتمد على المجموعات،
والمؤسسات ، والهيئات الاجتماعية ، والحكومات ، دون الاهتمام
بالأفراد ، مع ان الافراد هم اساس المجتمعات والحكومات
والاحزاب والمؤسسات ، نقول لهم : ايها السادة ، دونكم الافراد
فأصلحوهم وهيوؤهم لهذا الهيكل الاجتماعى ، فسيقولون : مالنا
وللأفراد ، نحن فى عصر اجتماعى طابعه الاجتماع ، فنقول لهم :
آمنا بالاجتماع ، ولكن اذا لم يكن الافراد أين يكون المجتمع ؟
ولكنهم يقولون : ان الافراد يصلحون بصلاح المجتمع ؟ ان مثل
هؤلاء الذين يهتمون بالمجموعات دون الافراد مثل من يجمع
أخشابا نخرة ، متأكلة مخرومة ، يريد أن يعمل منها سفينة تحمل
جماعة كبيرة وبضائع ثمينة ، فاذا قال له رجل صاحب نظر :
ان هذه الاخشاب لا تصلح لبناء سفينة تحمل جماعة كبيرة
وبضائع ثمينة ثقيلة ، قال : ان هذه الاخشاب لا قيمة لها ، انما
المهم السفينة ، فاذا تكونت السفينة فقدت الألواح شخصيتها ،
فلا يهmk ان كانت الاخشاب فاسدة منخورة .

ان الفاسد فاسد ولكن اذا اجتمع الفاسد مع الفاسد ينتج
الصالح ! ان اللص لص ، ولكن اذا اجتمعت اللصوص أصبحت
حارسا للمدينة !! .

هذه هى عقلية أوربا - ان اللصوص لصوص فى افرادهم ،
ولكنهم أمناء فى مجموعهم ، ما هذا المنطق ؟

الذئب ذئب ، ولكن اذا اجتمعت الذئاب أصبحت راعية ! ان
الجمرة تحرق البيت ، ولكنها اذا اجتمعت الجمرات أصبحت بردا
وسلاما !!

هذا شئ مضحك ، ولكن اليس هذا هو الاساس الذى يعمل
فى المدرسة والحكومة والمحكمة ؟؟

من اين جاءت الحكومة والقضاة والجنود ؟ اليس اكثر هؤلاء
فاسدين ودون المستوى الواجب ؟ فكيف تتحول هذه العصابات
المجرمة الى مجموعة صالحة ، رفيعة المستوى ، عالية فى الأخلاق ؟
العالم كله - مع الأسف - خاضع لهذا المنطق ، حتى فى
المستويات العلمية .

ان مدراء البلديات والجامعات ، والمؤسسات العلمية ،
والحكام لو كانوا فى الزمن الاول لما استحقوا اقل من الطرد ، بل
لكانوا فى السجون ، ولو ارادوا ان يشغلوا وظيفة حقيرة
ما استحقوا .

لقد طغت هذه العقلية على الافكار حتى أصبح الذى يثير
مسألة الأفراد يتهم بالرجعية .

يا أصحاب القلوب المؤمنة ، انتم المجتمع ، فى قسّمات
وجوهكم وضمائركم وعقولكم يرقد المستقبل الزاهر الذى تؤمله ،
فهيئوا نفوسكم تهيئة روحية خلقية ، علمية ، ايمائية ، هذا هو
نداء الوقت ، وواجب الساعة ، وجهاد اليوم .

لقد وجدت الحديث عن العالم الاسلامى حديث كل بلد حللته
وزرت فيه اخواننا ، وهو حديث كل مجلس حضرته ، ان العالم

الاسلامى حقيقة قائمة تسعى على قدميها ، لا ينكر فضله الا جاهل أو أحمق .

أنا أو من به ، وشاهدته في الهند ، وباكستان ، وتركيا ، وسوريا ، ومصر ، وأنتم أيها الاخوان جزء من العالم الاسلامى ، اذا كنتم تعتقدون أنه يعيش بغيركم ، وليس عليكم مسؤوليته فأنتم مخطئون ، ولكن أخشى أن كثيرا من الناس يهتمون بكل شيء غير نفوسهم ، وهذا هو الواقع فعلا . أنا أفكر في العالم ، ولكن أنا كذلك جزء منه ، فلأصلح هذا الجزء . ولكنى أرى كثيرا من اخوانى لا يفكرون في نفوسهم ، ويعتقدون أن العالم الاسلامى هو كل ما يفاير نفوسهم ، علينا أن نصلح نفوسنا ، وليعتقد كل منا أنه مسؤول ، فاذا صلحت هذه الاجزاء صلح العالم الاسلامى ، ان مثلنا أيها الاخوان ، كمثل ملك أعلن أنه يريد حوضا مملوءا بالبن « الحليب » ، وأنه سيدفع الثمن لكل من يجلب الحليب ، فقال أحد اللبانيين : لو أفرغ لبنان واحد سطلا من ماء ، فان هذا الماء لا يؤثر في الحليب الكثير ، فأفرغ سطل ماء بدلا من حليب ، وفكر آخر نفس التفكير ، وهكذا سرت الفكرة بين الجميع ، وجاء الملك في الصباح فوجد حوضا من ماء .

هذه قصتنا . ان كل فرد منا يقول ، اذا فسدت ، فماذا يضر العالم الاسلامى ؟ وبهذا أصبح كل العالم الاسلامى فاسدا لو فكرتم لرأيتم ان كل حديثكم عن غيركم .

انصفوا نفوسكم أيها الاخوان ، وما لكم وهذه القضايا التى لا تستطيعون خدمتها ، ان الاشتغال بالغير سهل ، ولكن الاشتغال بالنفس صعب ، والانسان يحب السهولة ، ولذلك اندفع العالم الاسلامى كله الى الاهتمام بغيره . هذا تفكير يجب أن يعالج .

أنتم العراق ، واذا كنتم العراق ، فأنتم جزء من العالم الاسلامى ، فيجب على كل منا أن يهيه نفسه ليكون لبنة صالحة في البناء .

لنكن فتية مجاهدة ، مؤمنة صادقة ، طاهرة النفس ، واضحة التفكير ، عميقة الجذور ، قوية العاطفة ، فائضة القلب .

فاذا كنا كذلك ، فصدقونى اننا نستطيع ان نغير تيار الفساد .

الازمة أزمة رجال ، فأين الرجال ؟ وان كثيرا من الناس يحرسون على الحكومات ويعتقدون انها هى المفتاح ، ولكن الحكومة يسيرها الرجال . فمن هم هؤلاء الرجال ، وكيف هم ؟ هذا هو داء العالم الاسلامى فأنتم هيئوا نفوسكم « لمعركة المستقبل » « معركة الاخلاق » و « الاخلاص والتضحية » ، اذا وجد رجل واحد يستطيع ان ينسى نفسه ومصالحة أسرته ، واصدقائه ، وحزبه ، ويستهدف مصلحة بلده ، وأمته ، لاستطاع ان يحدث انقلابا .

كان الجو قاتما ، والعالم الاسلامى يعانى مشكلة عظيمة ، وكان الولاة جائرين ، والجهاز فاسدا والمظالم سائدة ، والحقوق تمتن ، والناس غير آمنين ، وكان العالم الاسلامى من شرقه لغربه ، ومن شماله لجنوبه ، يعانى مرضا مرهقا . جاء رجل واحد هو « عمر بن عبد العزيز » عرف ربه ، ونسى نفسه ، وذكر اليوم الآخر ، فاستطاع ان يغير هذا التيار ، ويرغم العالم الاسلامى على ان يتجه الى الصلاح ، أين الافراد ؟ وأين من ينتجهم ؟ هل تنتجهم الكليات والمعاهد ؟ لا ، انما يربيهما الايمان ، وتنتجهم العقيدة والأخلاق .

فكلمتى لكم ، أن تهيئوا نفوسكم ، ربوا فيها الايمان والعقيدة ، كونوا مؤمنين بالله واليوم الآخر ومصالحة الاسلام ، كونوا رجالا ، اذا دانت لهم البلاد ، وأصبحوا يملكون أزمة الأمور لم يغيرهم الوضع الفاسد عما كانوا عليه ، هذا كان شأن الصحابة ، كانوا ضعفاء فقراء لا يملكون ما يكسون به أجسامهم ، ويشبعون به بطونهم ، فدانت لهم الدنيا وفتحت لهم الخزائن فما تغيروا .

بقى أبو عبيدة وسعد كما كانا ، وجاء سلمان الى العراق
واليا ، فخرج الناس لاستقباله ، فراوه يحمل على رأسه حملا
لرجل على أجره .

ان العالم لم يفسد الا عندما فسد الافراد ، وفقد هذا
الطراز الذى تخرج في مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم ، نحن
في حاجة الى هذا الطراز ، وهو لا يرتجى الا منكم ، من مثل هذا
الشباب المسلم ، المؤمن الصادق الذى يوطن نفسه على الشظف
والحياة البسيطة ، ان من امراض الامة العربية ، هذا التنعم
والتبذير ، والعادات القاهرة ، لا يستطيع احدهم ان يعيش من
غير سيارة ، وبيت فخم وراتب ضخمة ، ان هذه الامراض قعدت
بأمتنا ، وهذا كان داء الرومان والفرس ، فقد اسرفوا في المدنية
والتنعم ، يدل على ذلك انه لما زحف المسلمون على المدائن
وفتحوها ، خرج « يزديجرد » يحمل معه ألف طاه وألف مرب
للبزة والصقور ، ويقول : انى في حالة يرثى لها . أخذت هؤلاء
فقط .

الى هذا الحد وصلت مدنيتهم ، ولذلك انهارت هذا الانهيار
الفظيع . كان الذى يلبس قلنسوة قيمتها دون ٥٠ ألفا يعبر ،
وكانوا يلبسون مناطق بقيمة ٣٠ الى ٥٠ ألف ، مرصعة بالجواهر
والياقوت ، فهذه المدنية الزائفة هى التى جنت عليهم ، فخسروا
البولة والشرف ، والمجد والحياة .

فهينوا نفوسكم للجهاد والدعوة ، واذا قلدتم امانة ، فاحسنوا
القيام عليها ، هذه وصيتى لكم ، وربما لا تقيمون وزنا لها ،
ولكنكم ستذكرون ذلك في المستقبل ، فستذكرون ما أقول لكم
« وافوض امرى الى الله » .

ان الازمة ازمة رجال ، وازمة ايمان واخلاق ، وانى اعين
نفسى ان اومن بالفكرة القاصرة ، القائلة بتغير الوضع اذا تغيرت

الحكومات والاحزاب ، لقول الله تعالى : « اذن للذين يقاتلون بانهم ظلموا ، وان الله على نصرهم لقدير ، الذين اخرجوا من ديارهم بغير حق الا ان يقولوا ربنا الله » (الى ان قال) : « الذين ان مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة ، وآتوا الزكاة ، وامروا بالمعروف ، ونهوا عن المنكر (١) » .

انظروا كيف قدم ذكر هذه المحنة ، التي خرجوا منها كما يخرج الابريز من النار ، وخرجوا من ديارهم بغير حق ، حتى اصبحوا رجالا ان مكنهم الله في الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وامروا بالمعروف ونهوا عن المنكر .

فاذا لم نقطع هذه المرحلة لا نستطيع ان نصل الى الدرجة التي وصفها الله بقوله : « الذين ان مكناهم في الأرض » وقال تعالى : « ألم تر الى الذين قيل لهم كفوا ايديكم واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة » لم يحدثهم عن الحكومة ، والنتائج الأخيرة ، ولكن رباهم تربية اسلامية عميقة شاملة للاخلاق والتفكير ، حتى اذا نشأت النفوس ، انطلقت الموجة ، وكان ما كان .

اقول وانا مخلص ناصح ، اهتموا بانفسكم اهتماما دينيا ، خلقيا ، تربويا ، فكريا ، وآمنوا بانكم انتم العالم الاسلامي كما قال الشاعر :

وفيك انطوى العالم الاكبر ،

واذا صلحنا صلح العالم الاسلامي واذا صلحت الأجزاء
صلحت المجموعة .

اقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم .

* * *

(١) الآية ٤١ من سورة الحج .

ان آباءكم - أيها السادة المسلمون - قد أنتشروا في عواصم الجاهلية الأولى ، ومراكزها الكبرى ، يقولون : « الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد الى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام » وخلصوا الأمة الرومية من عبادة المسيح والصليب والأجبار والرهبان والملوك ، وخلصوا الأمة الفارسية من عبادة النار وعبودية البيت الكياني ، والأمة الطورانية من عبادة الذئب الأبيض ، والأمة الهندية من عبادة البقر ، وأخرجوها الى عبادة الله وحده ، وأخرجوها فعلا من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الاسلام ، والعالم ينتظر منذ زمان ، رسل المسلمين ينتشرون في عواصم الجاهلية الثانية ، يهتفون : « الله ابتعثنا لنخرج العباد من عبادة المادة والبطن ، الى عبادة الله وحده ، ومن ضيق عالم التنافس والآثرة والجشع المادي الى سعة عالم القناعة والإيثار والزهد ، ونعيم الروح وطمأنينة القلب ، ومن جور النظم السياسية والاجتماعية ، الى عدل الاسلام » .

هذه هي الدعوة التي تهيب بكم يا رجال العالم الاسلامي ، وهذه الانسانية البائسة تستصرخكم وتستفيتمكم على أعدائها . وليس العالم اليوم باقل ظمأ وأقل فاقة الى الدعوة الاسلامية الصحيحة منه بالأمس ، وانه لا يختلف عما كان عليه في القرن السادس المسيحي ، فهو غنى اليوم في كل ناحية من نواحي الحياة ، وفي جميع الحرف والصناعات ، وقد ضاق بالامم والحكومات ، وطفح بالاعلام والرايات ، وفاض بالحركات والدعوات ، وضجر بطفيان الأهواء والنزعات ، ونورة الأغراض والشهوات فالى الاسلام من جديد ..